ظاهرة الشك

بين

الغزالى وديكارت

إعداد

د/ محمد حسن مهدى بخيت

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بسوهاج

١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١) والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، سيدنا محمد بن عبد اللاه، الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين.

وبعد

فإنه لمن أبرز الموضوعات التى تشد الانتباه فى تاريخ الفلسفة ظاهرة { الشك } عند اثنين من عمالقة الفكر،هما حجة الإسلام "أبو حامد الغزالى "، والفيلسوف المسيحى " رينيه ديكارت "، الذى يعد أبا للفلسفة الحديثة، بحيث إذا درس أحدهما كإمام فى الفلسفة ورائد لمذهبه شد الانتباه إلى الأخر وجذبه إلى حلبة الدراسة، لعقد المقارنة بينهما بالرغم من الفارق الزمانى بين الفيلسوفين، وتنوع الوسط الثقافى والحضارى والروحى الذى عاش فيه كل منهما .

فقد وجد حجة الإسلام " الغزالى " - ٤٥٠ هـ / ١٠٥٩ م - فى عصر تسيطر عليه العقيدة الإسلامية، ووجد ديكارت فى عصر تسيطر

---

(١) البقرة آية : ٢٦٩.

عليه المسيحية، فلقد كان عصر الغزالى يعج برجال الفكر المختلفين فى المذاهب، والمتصارعين بالنقاش حول مسائل حساسة ومعقدة، ولذلك كثرت الفرق والمذاهب من فلاسفة، ومتكلمين، ومتصوفة، وفقهاء ومحدثين، وزنادقة، فكان الباعث الأساسى للغزالى فى هجومه على كل هذه الفرق، وتشكيكه فى كل آرائهم وأقوالهم، هو الوصول إلى اليقين الذى لا يقبل الشك فيما وراء كل الحقائق التى قدمتها إليه علوم عصره . يقول الغزالى " فجانب الالتفات إلى المذاهب، واطلب الحق بطريق النظر، لتكون صاحب مذهب، ولا تكن فى صورة أعمى تقلد قائدا، يرشدك إلى طريق، ٠٠ وستعلم فى عاقبة أمرك ظلم قائدك، فلا خلاص إلا فى الاستقلال، ٠٠ فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال"[١] فدعوة الغزالى هذه إلى التحرر من التبعية العقلية والجمود الفكرى، دعوة حية متجددة على مر الزمان، لأنها دعوة إلى تحقيق إنسانية الإنسان فى كل عصر من العصور.

وكذلك كان عصر " ديكارت " – ١٥٩٦/١٦٥٠ م – يعج أيضا بالمفكرين المختلفين فى الرأى، والمجتهدين فى النقاش حول المسائل الكبرى، كالألوهية وطبيعتها، والإنسان وحدود قدرته، والكون ومكانة الإنسان منه، وقد ظهر عجزهم جميعا عن تقديم الأدلة المقنعة، ولهذا

---

(١) ميزان العمل، تحقيق د/ سليمان دنيا، ص ٤٠٩ ط : القاهرة ١٩٦٤ م وص ١٧٤ – ١٧٥ ط : مكتبة الجندى ١٩٧٣ م.

اتجه " ديكارت " إلى البحث عن اليقين الذى تنبعث عنه كل معرفة يطمئن إليها المرء، ويجد معها حاكمها الشاهد بأنها صواب، منزهة عن أى احتمال للشك أو الخطأ، فبدأ يستخدم الشك كوسيلة منهجية، من أجل الوصول إلى الحقيقة التى لا يمكن أن يتطرق الشك إليها.

وقد استطاع كل من " الغزالى " و "ديكارت "، فى النهاية أن يتوصلا عن طريق استقلالهما العقلى، وحدة ذهنهما إلى إعادة بناء الفلسفة بناء جديدا خلاقا، إذ الباعث على الشك فى فلسفتهما هو حب الحقيقة وحده، وإرادة الوصول إلى العلم اليقينى، إذ الشك ضرب من النشاط الفكرى، ورغبة فى البحث والاستزادة، هذا إلى أنه ثمرة من ثمار الحرية واستقلال الرأى، فبعد أن يشبع الإنسان إندهاشه، وتعجبه بمعرفة الأشياء، أو بما قاله الآخرون ينشأ عنده الشك من تضارب الآراء، أو فيما علم هو نفسه، لأن المعارف التى تتجمع لديه إذا فحصها ونقدها يتبدد معظمها، أو ربما تتهافت كلها، وعندئذ يستولى عليه الشك، ولذلك فإن الشك ملازم للمعرفة ولا حق لها، وفى الشك إحياء للمعرفة نفسها، ولا توجد معرفة حقه بدون شك.

والحقيقة أن البحث فى المعرفة مطلب لا غنى عنه فى أى حركة ثقافية وعمل فكرى، ويكون إغفاله أو التهاون فيه مصدرا لمشكلات خطيرة، عندما تكون مسألة الثقافة، وقضية الفكر، فى إطار العقائد والقيم، وتوجيه المسار، وتحديد الموقف، وكيف لا يكون البحث فى المعرفة مهما، والمعرفة أعلى وظيفة للإنسان فى الوجود، وهل الاعتقاد

أو الإيمان والدين، إلا علم ومعرفة، وكيف لا تكون المعرفة مهمة وهى ميزة الإنسان، وأساس استخلافه فى الأرض ؟

ومعرفة الحقيقة من الأمور التى لا يمكن أن تؤخذ تقليدا عن الآخرين، لأن هذا يعنى أن المقلد يلغى عقله وفكره، ويعنى فى النهاية أيضا أنه يتنازل عن إنسانيته، وفى هذا يقول الإمام الغزالى:"فاعلم يا أخى أنك متى كنت ذاهبا إلى تعرف الحق بالرجال من غير أن تتكل على بصيرتك فقد ضل سعيك، فإن العالم من الرجال إنما هو كالشمس، أو كالسراج يعطى الضوء، ثم انظر ببصرك، فإن كنت أعمى فما يغنى عنك السراج والشمس، فمن عول على التقليد هلك هلاكا مطلقا"(١) ويقول ديكارت فى هذا الشأن أيضا : " فإننى تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما فى شىء ما بحكم التقليد أو العادة"(٢).

والفلسفة إذا كانت فى جوهرها بحثا عن الحقيقة، أو سعيا وراء معرفتها، فإن هذا أمر يهم كل إنسان بما هو إنسان فهى تفترض أن هناك حقيقة موجودة، وترى أن واجبها يتمثل فى البحث عن هذه الحقيقة، والسعى وراء معرفتها، وتتمثل الحقيقة فى البداية كمشكلة، وفى النهاية كهدف وكموضوع للمعرفة . ومع ذلك فقد كان هناك من تشكك فى المعرفة وفى الحقيقة على السواء وذهب فى ذلك إلى أقصى حدود التشكك، وهؤلاء يطلق عليهم "الشكاك".

---

(١) معيار العلم، تحقيق ج / سليمان دنيا، ص ٣٣٨ ط : القاهرة ١٩٦١ م.

(٢) مقال عن المنهج، ص ١١٩ ط : دار الكتاب العربى ١٩٦٨م.

والبحث الفلسفى سواء عند من شك فى إمكان المعرفة، أو عند من أيقن بإمكانها، توجه إلى إنكار أو إثبات طرق هذه المعرفة وطبيعتها، ولذلك اعترض الشكاك على الحس وعلى العقل كطريقين للمعرفة، وكمصدرين فى نظر الفلسفة، فى الوقت الذى دافع فيه اليقينيون من عقليين وتجريبين، دفاعا مستميتا عن العقل والحس، مصدرين منتجين للمعرفة، وقام اتجاه ثالث يؤمن بوجود المعرفة وإمكانها، ولكنه لا يسلم بها تسليما ساذجا، وإنما يحاول أن يفلسف هذين المصدرين، ويرد المعرفة إلى قاعدة بديهية متميزة، وهو ما يسمى بالشك المنهجى الذى تحقق على يد " الغزالى وديكارت " .

وهذا النوع من الشك، هو الذى تنبع عنه الفلسفة الحقة، فهو بمثابة حذر ونقد وتمحيص ونفاذ إلى بواطن الأمور، يؤدى إلى تميز الثابت من المتغير، والجوهر من العرض، والحق من الباطل، وكل الفلسفات الكبرى التى عرفها التاريخ تقوم فى الواقع على مثل هذا الشك المستنير الذى يمحص ويحذر فيولد اليقين .

ولما كان هذا النوع من الشك يمثل نقطة الانطلاق التى يبدأ الإنسان منها سيره العلمى الصحيح، إذ الباعث عليه هو حب الحقيقة وحده، وإرادة الوصول إلى العلم اليقينى، وليس مجرد شك لذاته، أى لأجل البلبلة الفكرية، وإحداث الاضطراب العقلى، دون ما هدف أو غاية، أقول لما كان الأمر كذلك اخترت موضوع بحثى – بمشيئة الله تعالى – " ظاهرة الشك بين الغزالى وديكارت "، لما له من أهمية

جليلة فى الحياة العلمية، ومدى حاجتنا إليه فى عصرنا هذا، للوصـــول إلى المعرفة الحقة التى لا تقبل الشك بأى حال من الأحوال .

هذا، وقد اشتمل هذا الموضوع علـــى مقدمـــة وخمســـة مبـــاحث وخاتمة:

أما المقدمة : فقد تحدثت فيها عن أهمية هذا الموضوع، والمنـــهج الذى اعتزمت السير عليه .

وأما المبحث الأول: فقد عقدته للحديث عن " الشك مفهومه ومهمته " .

وأما المبحث الثانى: فقد تناولت فيه " أقسام الشك " .

وأما المبحث الثالث: فقد تحدثت فيه عن " الشك المنهجى عند الغزالى ".

وأما المبحث الرابع: فقد تكلمت فيه عن " الشك المنهجى عند ديكارت ".

وأما المبحث الخامس: فقد تحدثت فيه عن " أوجه الاتفاق والاختـــلاف بين الفيلسوفين ".

وأما الخاتمة: فقد تناولت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها من خـــلال تتبعى ودراستى لهذا الموضوع .

وبعـــد

فهذا ما هدانى الله تعالى إليه فى بحثى، فإن كنت قد وفقت، فذلـــك بفضل الله تعالى، وإن تكن الأخرى، فعذرى أننى بشر أخطئ وأصيـــب، والكمال لله وحده، وحسبى أننى ما ابتغيت إلا وجه الحق والصواب .

وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وصلـــى الله وســـلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام .

الثلاثاء الموافق: ١٨ من شوال ١٤٢٢ هـــ /١من يناير ٢٠٠٢م.

دكتـــور

محمد بن الحسن المهدى

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بجامعة الأزهر

المبحث الأول

الشك مفهومه ومهمته

من الفلاسفة من بدأ فلسفته وهو مؤمن إيمانا مطلقا بصدق آرائه، وبأن ما عداها وهم باطل، هذه النظرة تمليها روح من التعصب والتزمت تجعل صاحبها متفعلا إلا عن مذهبه هو، وهو قد يؤمن بمذهبه وآرائه دون أن يقيم الدليل الكافى على ما يؤمن به إيمانا أعمى، ويؤكد أن أراءه وحدها هى التى تمثل الحقيقة، وهو من أجل ذلك إيقانى توكيدى متزمت.

والمذهب الذى يدين به هذا الطراز من الفلاسفة هو النزعة التوكيدية أو التزمتية، أو **الدوجماطيقية**[1]. فأصحاب هذا النزعة يبدأون فى تفكيرهم من نقطة معينة يسيرون بعدها دون أن يفكروا فى تحليل هذه النقطة أو نقدها . فالنزعة التوكيدية إذن تطلق على كل مذهب لم يمهد له بدراسة نقدية تحليلة كافية[2].

ولقد أطلق الفيلسوف الألمانى " إيمانويل كانط " – ١٧٢٤،

---

(١) الدوجماطيقية قديما : كل فلسفة تثبت حقائق معينة، ومن ثم فهى تقال فى مقابلة الشكية . والدوجماطيقية حديثا : ابتداء من " كانط "، تقال فى مقابلة " فلسفة نقدية . وهى إدعاء التحرك قدما بمعونة معرفة خالصة مأخوذة من تصورات معينة، استنادا إلى مبادئ يتعامل معها العقل منذ زمن بعيد . انظر : المعجم الفلسفى، د/ مراد وهبة ص ١٩٦ – ١٩٧، ط ٣ : دار الثقافة الجديدة ١٩٧٩م.

(٢) مقدمة فى الفلسفة العامة، د / يحى هويدى، ص ١٠٧، ط ٦ : دار النهضة العربية ١٩٧٠م .

١٨٠٤م – اسم " الدوجماطيقية" على وجهة النظر الفلسفية أو الشعبية، التى تأخذ بالمعرفة أخذ الواثق من صدق دعواه، وتتشبث بها دون فحص أو تمحيص نقدى للأساليب والمبادئ التى تبنى عليها. والمذاهب الفكرية، والنظريات الفلسفية، التى أنشأتها السلطة والإيمان الدينى أمثلة بارزة لهذا " الدوجماطيقية، أو القطعية فى المعرفة[١].

وهناك أنواع كثيرة من " الدوجماطيقية " أولها " الدوجماطيقية" الساذجة، التى نلتقى بها عند رجل الشارع، فرجل الشارع متعصب لآرائه إلى أبعد الحدود، لا يقبل أن يناقش آراءه ومعتقداته أحد، يعتقد فى ذكائه المفرط، وقدرته الخارقة على معالجة الأمور . ويتصل بهذا النوع الدوجماطيقية المادية، فرجل الشارع مشدود الوثاق إلى الواقع المادى، لا يستطيع عنه حولا، يؤمن بأن الحقيقة ليست إلا مجرد صورة مطابقة له، أو نسخة منه، فهذه النزعة المادية الساذجة " دوجماطيقية " هى الأخرى، لأن صاحبها لا يؤمن بغير المادية، ويجعلها متسلطة على العقل، متحكمة فيه . وهناك أيضا " دوجماطيقية " دينية معروفه، لا نلتقى بها فقط عند رجال الدين المتزمتين، بل فى هذه الفلسفات الدينية التى يتخذ فيها الفيلسوف نقطة بدئه من تصور دينى معين، يطبقة على فلسفته، ويجعل منه مفتاح السر الذى يديره، فتنفتح أمامه لتوها كل الأبواب المغلقة، ويجد بذلك تفسيرا هينا لكل المشاكل الفلسفية التى تعترض طريقه[٢].

---

(١) مدخل إلى الفلسفة، د/ إمام عبد الفتاح، ص ٢٩٧، ط ٣ : دار الثقافة ١٩٧٥ م.

(٢) مقدمة فى الفلسفة العامة، ص ١٠٨ .

أما القطعيون، أو الدوجماطيقيون فى مجال الفلسفة، فهم الفلاسفة الذين يقبلون بشكل غير نقدى ما يسمى بالحقائق الواضحة بذاتها، دون نقد أو تمحيص، أو أولئك الفلاسفة الذين يخلقون سلاسل طويلة من الاستدلالات المنطقية يصلون منها إلى نتائج بغير فحص أو تحليل للمبادئ الأساسية التى قامت عليها هذه الاستدلالات[١].

والفلسفة الحقة تعارض هذه النزعة التوكيدية بأنواعها، لأنها تمثل مرحلة بدائية من مراحل التفكير الإنسانى، يوم كان الإنسان يعمل دون أن يناقش نفسه الحساب، ويندفع لسد مطالب حياته المادية الجارية دون أن يتوقف ليعمل تفكيره . ولكن سرعان ما اكتشف الإنسان أنه يخطئ، وأنه غير معصوم، واكتشافه لخطئه هو الذى أيقظ لديه روح عدم الثقة بنفسه، والشك فى معرفته .

ولذلك فإن الشك هو أول خطوة من خطوات العمل الفلسفى، ومن واجب المفكر أن يتحلى بروح نقدية شكية، تخالف هذا اليقين المطلق . والشكاك فى الفلسفة، ضد أصحاب النزعة الإيقانية التوكيدية، فإذا كان هؤلاء لا يعرفون للمعرفة الإنسانية حدودا، ويؤمنون إيمانا أعمى بقدرة عقلهم، فإن الشكاك، لا يعرفون للجهل الإنسانى حدودا، ويعتبرون العقل عاجزا تماما عن الوصول إلى أى علم يقينى .

والنزعة الإيقانية الدوجماطيقية، أشد خطرا على الفكر من النزعة

---

(١) مدخل إلى الفلسفة، ص ٢٩٨ .

الشكية، لأنها توصد الباب أمام الفكر الجديد، وتنسى أن تناقش نفسها الحساب، وتحول دون التطور والتقدم، وهذه الدوجماطيقية المتزمته، كانت، ولا تزال، المسئول الأول عن عقم الفكر وضحالته، وانسداد منافذ النور فى وجه الإنسانية، على أن ذلك لا يجب أن يفهم على أنه دعوة إلى الشك المطلق، الذى لا يعرف الحدود، والذى يتناول كل المقومات والقيم، فليس من رسالة الفلسفة كما يقول الدكتور "جعفر" أن تزعزع ثقة المجتمع فى تقاليده وقيمه ومثله. وإنما رسالتها أن تنبه إلى الإمكانيات الأفضل التى تصادق الحق والخير والجمال، إمكانيات هذا الفكر(١).

على أن الدعوة إلى الشك فى كل شىء، لا يمكن تحقيقها فى الواقع، لأن من العسير أن يتنازل ويتنكر الإنسان لكل معارفه وآرائه وتقاليده، ليبدأ حياته من الصفر، إن الشك الهادف البناء هو ما يقتصر على ما تثيره الظروف، وما تدعو إليه الحاجة.

فما هو الشك إذن، وما مهمته ؟

الشك* بوجه عام : هو تعليق الفصل بين قولين متناقضين لا يظهر رجحان أحدهما(٢) . ولفظ "الشك" يرجع إلى كلمة يونانية، معناها البحث

---

(١) فى الفلسفة دراسة ونصوص، د/ محمد كمال جعفر، ص ١٨٢، ط : مكتبة دار العلوم القاهرة ١٩٧٦م

* الشك يقابله اليقين، واليقين فى اللغة : من يقن الأمر ييقن يقنا : ثبت ووضح . والوصف يقين، ويقال اليقين : العلم الذى انتفت عنه الشكوك والشبه

راجع : معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، ٧٠٩/٢ ط : القاهرة . ==

والتقصى من أجل الكشف عن الحقيقة[١]. وهو فى اللغة ضد اليقين[٢]. ولكن هذا اللفظ اتخذ مدلولا اصطلاحيا بعد ذلك، ليشير إلى موقف الإنسان الذى يبحث عن الحقيقة .

والشك فى الاصطلاح : هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، وذلك لوجود إمارات متساوية فى الحكمين، أو لعدم وجود أية إمارة فيهما[٣]. وقيل الشك ما استوى طرفاه،

== ويعرف الإمام الرازى اليقين فيقول : هو العلم بالشىء بعد أن كان صاحبه شاكا فيه، سواء كان ذلك العلم ضروريا أو استدلاليا . راجع : التفسير الكبير، ١٧٣/١، ط : القاهرة .

ويعرفه الغزالى : بأنه المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان، الذى لا يشك فيه، ولا يتصور الشك فيه، فإذا امتنع وجود الشك، وإمكانه، سمى يقينا، فاليقين كل علم لا شك فيه . راجع : لحياء علوم الدين، ٧٣/١، ط : القاهرة .

والإيقان كما يعرفه الجرجانى هو :"العلم بحقيقة الشىء بعد النظر ولاستدلال ". راجع : التعريفات، ص ٣٤ .

فاليقين هو الاساس لكل معرفة ممكنة، فإذا انتفى اليقين، تزلزلت أركان المعرفة واختل إمكانها، وما اليقين إلا التصديق الوثيق بموضوع المعرفة، وهذا التصديق كثيرا ما يكون بغير دليل .

(٢) الفلسفة العربية عبر التاريخ، تأليف رمزى نجار، ص ٢٥٠، ط ٢ : دار الآفاق الجديدة ١٩٧٩م.

(١) الفلسفة ومباحثها، د / محمد على أبو ريان، ص ٢٠٨، ط ٣ : دار الجامعات المصرية، ١٩٧٢م.

(٢) الصحاح، تأليف، لسماعيل بن حماد الجوهرى، مادة شك، ط ٣ : بيروت ١٤٠٤هـ.

(٣) التعريفات، للشريف الجرجانى، ص ١١٣ مادة شك، ط ١ الحلبى ١٩٣٨م . وقارن : المعجم الفلسفى، د / جميل صليبا، مادة شك، ط ١ : بيروت ١٩٧٣م . وقارن : المعجم الفلسفى، د/مراد وهبة، ص ٢٣٢ ط ٣ : دار الثقافة الجديدة ١٩٧٩م.

وهو الوقوف بين الشيئين، لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن، فإذا طرحه فهو غالب الظن، وهو بمنزلة اليقين[١] .

والشك حقيقة واحدة، تخضع فى الشرق والغرب، والماضى والحاضر لنواميس واحدة، وقد أثبتت بحوث علم النفس الحديث، أن الشك ليس حالة شاذة، وأن الفرد بوجه عام يمر بفترة شك طويلة أو قصيرة، فحياة كل منا أدوار متعاقبة، وكل دور منها يختلف عن سابقة فى خصائصه النفسية : الفكرية والوجدانية والنزوعية، فهناك دور الطفولة الأولى، ودور الطفولة الثانية، ويلى ذلك دور البلوغ، وقد أثبتت بحوث علم النفس أن من خصائص دور الطفولة الطاعة والإيمان، ففيه تتوطد العقائد الدينية والاجتماعية، وتستقر السلطة الوالدية، أما دور البلوغ فيبدأ بنزعة قوية إلى الاستقلال والتمرد على السلطة من ناحية، ثم الشك فى العقائد والتقاليد من الناحية الأخرى، إذ أن مرحلة البلوغ مليئة بالأحداث النفسية والجسمية[٢].

فالشك لا تعرفه الطبيعة البشرية كشىء مستقل مقطوع الصلة بما سواه، ولكنه يظهر فى العادة كجزء من عملية نفسية مركبة: تبدأ بالشك وتنتهى باكتشاف فكرة خاصة، وتفصل فيما بين الشك والاكتشاف عملية

---

(١) التعريفات نفس الصفحة .

(٢) الفلسفة والمجتمع الإسلامى، د / إبراهيم عبد المجيد اللبان، ص ٧٤ ط ١ : النهضة المصرية ١٩٥٠ م.

نفسية طويلة دقيقة ينقب فيها العقل فى جميع الزوايا عن المعلومات السابقة، ويقلبها ظهرا لبطن، ثم تنهض من هذه الأشتات صورة جديدة تمثل فرضا علميا، أو حلا لمعضلة من نوعها، وقد يلى ذلك اختبار دقيق للفكرة الجديدة ينتهى بإثبات صحتها أو ظهور فسادها . فالشك إذا ليس حقيقة نفسية مستقلة وإنما هو جزء من عملية التفكير، ودور من أدوارها .

ومهمة الشك واضحة : فهو الذى يدفعنا إلى التفكير والبحث، ويتضح هذا إذا تذكرنا أن الشك حالة قلق، وأن الرجل إذا سلب الإيمان بما يعتقد، وداخله الشك فيه، ذايلته الطمأنينة والراحة النفسية، فاندفع إلى البحث لتعاوده الطمأنينة والراحة النفسية المفقودة .

تلك هى مهمة الشك فى الحياة العقلية، وهى مهمة خطيرة فالعصور التى لا يظهر فيها الشك يسود الركود حياتها العقلية ويستولى الجمود على نظمها السياسية والاقتصادية، ولا يظهر التجديد فى دوائرها العلمية . فإذا ظهر الشك تبدل الحال، فظهرت البحوث العلمية والفلسفية والسياسية والاجتماعية، وكذلك تكون حياة الأفراد، فالثقة إذا استولت على عقل الفرد عاش على القديم راضيا به، مطمئنا إليه، حتى إذا أزعجه الشك تغير حاله، فقد ينهض للبحث والتنقيب بعزيمة جديدة، وروح يتملكها حب الحرية والاستقلال .

ومن مهام الشك أيضا، أن يكون باعثا على تحقيق الفروض،

فالفكرة الجديدة لا تنقلب جزء من العلم أو الفلسفة إلا إذا قام الدليل التجريبى أو النظرى على صحتها، ولم يبق ثمة مفر من قبولها. فالشك إذا عنصر فكرى هام، فهو الدافع إلى البحث والتفكير، وهو أيضا مصدر التنقيب والاستيثاق العلمى، فهو الذى يحجز الفيلسوف والعالم الحديث عن الخطأ الذى وقع فيه قدامى الفلاسفة والعلماء، وقد أصبح جزءا من الأسلوب العلمى الحديث الشك فى الفروض عند ظهورها بدل الركود إليها والإيمان بها(١).

فمهمة الشك الطبيعية إذن أن يكون جزءا من عملية التفكير لا شيئا مستقلا، وأن يقوم فيها بمهمة الباعث والناقد معا . ومعظم المفكرين المعتدلين لجأوا إلى هذا النوع من الشك، وهو " تعليق الحكم فى قضايا لا تظهر صحتها بصورة جلية لتعميق النظر فيها وتمحيصها من كل النواحى قبل الأخذ بها، أو نبذها، أو تقرير إفلاس العقل فيها، من هذا القبيل الشك الذى سلكه الغزالى وديكارت، حيث ضربا صفحا عن كل المسلمات المعروفة لإعادة النظر فيها عن طريق مبدأ أولى يتخذاه كنقطة انطلاق لاستخراج جميع الحقائق . ومن هذا القبيل أيضا الشك النقدى أو العلمى، وهو الذى يعتمده العلماء لامتحان الفرضيات لمختلف الاختبارات والتجارب قبل إثبات نتائجها(٢).

ومن هنا كانت كل مرحلة من مراحل الشك تليها مرحلة يقين

---

(١) السابق، ص ٧٦ – ٧٨ .

(٢) الفلسفة العربية عبر التاريخ، ص ٢٥١ .

تشتد فيها الدعوة إلى يقين العقل واطمئنان القلب، يشهد بهذا تاريخ الشك نفسه، فشك السوفسطائية أعقبه اليقين الذى أكده سقراط وأفلاطون وأرسطو، وشك المدارس اليونانية المتأخرة تلاه يقين فلسفى دينى صوفى، باتصال الفلسفة اليونانية بالروح الشرقية الدينية، وشك فرنسا فى القرن السادس عشر قد أعقبه يقين دينى عند " شارون "، وتجريبى عند " بيكون " وأتباعه، وعقلى عند " ديكارت " ومدرسته، وشك هيوم قد ابطله " كانط " بمذهبه النقدى[١].

---

(١) أسس الفلسفة، د / توفيق الطويل، ص ٣١١، ط ٦ : النهضة العربية ١٩٧٦ م.

المبحث الثانى

أقســـام الشـــك

هناك درجات كثيرة للشك، فقد يشك المرء فى عـــدد قليـــل مـــن المسائل على نحو ما يشك المرء – مثلا – فى معتقدات الناس الدينية، والشك فى هذه الحالة يتضمن الإلحاد كمذهب، أو يحاول الشك فى جميع الحقائق والمعارف، وهو ما يسمى فى هذه الحالة بالشـــك المطلـــق، أو الشك الهدام . أو قد يقف عند مرحلة تعليق الحكم، بمعنى أنه إذا عجـــز عن فهم مشكلة ما، توقف عن إصدار الحكم بشأنها . أو قد يشـــك فـــى بعض أنواع الآراء دون بعضها الآخر.

لكن علينا أن نلاحظ أن معنى " الشك "، فى حياتنا اليومية أوســـع بكثير من الشك بمعناه الفلسفى، ذلك لأن كل من يعلن عـــن شـــكه فـــى مختلف أمور الحياة اليومية، يمكن أن يسمى " متشككا " لكنه لا يمكـــن أن يكون شاكا بالمعنى الفلسفى . إن أوسع معنى يمكن أن نفهم منه الشك الفلسفى هو : إنه من يضع لأسباب معينه ما يعتبره غيره معرفة قاطعـــة صحيحة موضع التساؤل[١].

ويمكن أن نقول إن هناك نوعين بصفة عامة من الشـــك الفلســـفى هما: الشك المطلق أو المذهبى، والشك المنهجى أو العلمى .

---

(١) مدخل إلى الفلسفة، ص ٢٩٨ .

أولا: الشك المطلق أو المذهبى:

هذا النوع من الشك، يبدأ صاحبه شاكا، وينتهى شاكا، هو حالة ريب متكاسل يزاول لذاته، وبغير إرادة من صاحبه، ويكون غاية وليس وسيلة إلى غاية أخرى يهدف إلى تحقيقها – كاليقين أو المعرفة الصادقة–، .. يفرض نفسه على صاحبه ويستعبده فلا يجد مفرا من الرضوخ له، وبهذا يشل انطلاق التفكير . ومن صور هذا الشك كانت حالة الإمعان فى التردد والغلو فى الشعور بالحيرة التى وصفتها الدراسات السيكولوجية الحديثة بأنها مرض عقلى حين يصبح الشك عادة تسيطر على صاحبها وتستعبده، فتتركز الرغبة فى الشك فى مزاولة الشك نفسه منعزلة عن النشاط العقلى السوى وبذلك تتحول هذه الرغبة إلى جنون الشك[١].

وقد ابتليت الإنسانية بهذا النوع من الشك العاصف، على يد من سموا بالسوفسطائيين[٢] فى تاريخ الفكر اليونانى، حيث سيطرت على الفكر اليونانى موجة من الحيرة والارتياب، وبلبلة الفكر نتيجة للسفسطة

---

(١) السابق، ص ٧٦ – ٧٨ .

(٢) السوفسطائيون : هم جماعة من المعلمين المحترفين لتدريس الفلسفة والبلاغة، وقد ظهروا فى عصر سقراط فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ويمكن أن نعتبرهم أول من عنى بسلوك الإنسان وأخلاقه، إذ من سبقوهم من فلاسفة وجهوا اهتمامهم إلى الطبيعة، ومن أين نشأ العالم، إلى غير ذلك من الأمور التى تتعلق بالعالم المادي وتكوينه، ضاربين صفحا عن مسائل السلوك الإنسانى . ويقول الإمام البغدادى : هم ينسبون إلى رجل يقال له سوفسطا، زعموا أن الأشياء لا حقيقة لها . راجع : تلبيس أبليس، للإمام البغدادى، ص ٤٠، ط : دار احياء الكتب العربية ١٩٨٦ م.

والجدل، وتضارب الآراء فى قضايا الفلسفة، وانتهت بهم إلى إنكار جميع الركائز الفكرية للإنسان، وإنكار المحسوسات والبديهيات .

قال السوفسطائيون بنسبية المعرفة، وأن الإنسان مقياس الأشياء جميعا، واستندوا إلى خداع الحواس، وعدم الثقة فى الإدراك الحسى، وتلاعبوا بالألفاظ، مستخدمين طرق التورية والجناس اللفظى، حتى أشاعوا الغموض والاضطراب فى أفكار الناس وأقوالهم .

لقد زلزل السوفسطائيون أسس المعرفة وبناءها، حيث ردوها إلى الحس، فانتهى بهم هذا إلى القول بأن الفكر لا يقع على شىء ثابت، ومن ثم امتنع إصدار الأحكام، وبطل القول بوجود حقيقة مطلقة، بل تعذر وجود الخطأ، أنكروا إمكانية إصدار الأحكام العامة، لأنها تستلزم أن تكون الفكرة حاضرة فى جميع العقول، مع أن الحقيقة عندهم وقف على الفرد، وبهذا امتنع العلم(١).

والسوفسطائية تدور فلسفتها على مذهبين هما : مذهب العندية ويمثله " بروتاجوارس " حيث يذهب إلى أن رأى كل فرد حق عنده بالنسبة إليه فحسب . ومذهب العنادية، ويمثله " جورجياس " ويقوم هذا المذهب على المكابرة والشك فى كل شىء، ويرى أنه ما من قضية بديهية أو نظرية إلا

---

(١) الفلسفة ومباحثها، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ . وقارن : دراسات فى الفلسفة الإغريقية من طاليس إلى أبروقلوس، د / محمد المهدى، ص ١٢٠ وما بعدها، ط ١ : الصفا والمروة ١٩٩٧ م.

ولها معارضة، أو مقاومة مثلها فى القوة والقبول عند الأذهان[١]. وقد صور حالة الشك فى الوجود فقال : " لا يوجد شىء، وإن وجد شىء فلا يمكن أن يعرف، وإذا أمكن أن يعرف فلا يمكن ايصاله إلى الغير"[٢].

وهذا شك إلحادى إنكارى، ينكر العلاقة بين الإنسان العارف وبين الوجود المعروف، ولا يسلم من شكه حتى وجود الله تعالى كما يقول { بروتاغوارس} : " أما الآلهية فلا استطيع أن أجزم بوجودهم أو عدم وجودهم"[٣].

وقد ظهرت شخصية " سقراط " فى محاربة الشك الهدام حيث رأى أنه لا بد أن يبدأ من مرحلة الصفر لإقامة دعائم المعرفة، فأخذ يحدد معانى الألفاظ المتداولة بين الناس قبل الدخول فى أى مناقشة حتى يقطع السبيل على مناورات السوفسطائيين، وتلاعبهم بالألفاظ وقد استطاع " سقراط " فى أثناء حياته أن يوقظ العقول من غفلتها وأن يدرب عددا من تلاميذه على أساليب البحث والنظر، فوضع بذلك أسس النهضة العلمية والفلسفية الكبرى فى اليونان القديمة، ثم جاء **أفلاطون**،

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، د / على سامى النشار، ١٦٣/١ ط ٨ : دار المعارف ١٩٧٧م.

(٢) فلاسفة الإغريق، ريكس وورتر، ترجمة عبد المجيد سليم، ص ٦٠ ط : الهيئة المصرية ١٩٨٥ م. وقارن الفلسفة اليونانية مقدمة، تايلور، ترجمة عبد المجيد عبد الرحيم، ص ٦٩، ط : النهضة المصرية ١٩٥٨ م.

(٣) قصة الفلسفة اليونانية، أ / زكى نجيب وأحمد أمين، ص ٦٦ ط : لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٨م.

واستخدم أسلوب أستاذه فى تنمية بذور الفلسفة والعلم التى بثها **سقراط** فى عقول تلاميذه، ثم نهض أرسطو تلميذ **أفلاطون** بعبء البحث والتنقيب، حتى تم له وضع فلسفة حافلة، قدر لها أن تسود عقول البشر فى الشرق والغرب قرونا طويلة[١].

وقد حمل لواء الشك الصريح فى هذه الفترة " بيرون " – ٣٦٥ – ٢٧٥ ق.م –، ومدرسته حتى قال عنه أحد الباحثين : " إنه أول مذهب فلسفى بنى على الشك التام فى إمكان المعرفة الإنسانية[٢]. فقد شك " بيرون " فى الحس والعقل ولذا وصف شكه بالشك المطلق، فقد كان يقول : " يجب أن لا نثق فى الحس ولا فى العقل، وأن نبقى من غير رأى، دون الميل إلى هذا أو ذاك، وأيا كان الأمر يجب أن نثبت وأن ننفى معا، أو لا نثبت ولا ننفى"[٣]. وقد أدى به شكه فى الحس والعقل إلى تعليق الحكم بالنسبة للأشياء بمعنى أن يتوقف عن إصدار حكم على حقيقتها، وحسبه أن يقول لا أدرى .

وقد عاد الشك البيرونى إلى الظهور بعد ذلك فى مدرسة الإسكندرية على يد "**انيسديموس**" فى القرن الأول بحججه العشر التى أيد بها ضرورة

---

(١) دراسات فى الفلسفة الإغريقية من طاليس إلى ابرقلوس، ص ١٤٩ وما بعدها، د / محمد المهدى.

(٢) مدخل جديد إلى الفلسفة، د / عبد الرحمن بدوى، ص ١١٤، ط ٢ : وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٨م.

(٣) مع الفيلسوف د / محمد الفندى،، ص ٥٣، ١٤٤، ط : دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠م . وقارن : مدخل إلى الفلسفة، ص ٣٠٠ .

الشك فى المحسوسات، وأدلته الثلاثة التى أنكر بها العلم بالمعقولات . و"أجريبا "، فى القرن الأول والثانى للميلاد وهوم الذى يعتبر بحق واضع قوانين الشك الحقيقى . و " سكستوس" فى القرن الثانى، وهو الذى بلغ الشك أوجه على يده، فيما يقول بعض المؤرخين[1].

كان مذهب هؤلاء أصدق للشك الحقيقى، الذى يعلق الحكم وينكر إمكان العلم بالحقيقة على اعتبار أن كل قضية تقبل السلب والإيجاب بقوة متعادلة، فيما قال شيخهم " بيرون "، وقد لبث هذا الشك حتى القرن الثالث بعد الميلاد .

أما **شك الأكاديمية الجديدة** – هم اتباع مدرسة أفلاطون الجديدة– فقد نشأ بعد توقف الشك البيرونى بقليل، وذلك عند الأفلاطونى " أو كسيلاوس " – ٢٤١ ق. م –، ثم " كارنيادس " وقد بذروا بذور الشك الهادم، وقرروا أن المعرفة اليقينية لا يمكن اكتسابها على أية صورة، فرفضوا شهادة العقل والحس، وانكروا وجود أى مقياس للحقائق، وبذلك استحالت المعرفة عندهم تماما وإن قالوا " بمبدأ الاحتمال أو الترجيح "، فكل حكم أو قضية – فى نظرهم – من الممكن أن تكون أكثر احتمالا من قضية أخرى، أى أدنى إلى الصواب منها، ولكنهم لا يفسرون معنى الصواب ومعياره، فيصبح الاحتمال ضربا من الظن الذى لا يثمر، ولا

---

(١) أسس الفلسفة، ص ٣٠٨ . قارن : مدخل إلى الفلسفة، ص ٣٠٠ – ٣٠٢ .

يؤدى إلى أى قدر من المعرفة[١].

هذا هو الشك " الايستمولوجى " الحقيقى الهدام، كما صور فى عصوره القديمة، وهو شك مرجعة إلى قصور التفكير مع الشعور بالحاجة إلى معلومات تسلم صاحبها إلى الاقتناع، ومن ثم فهو يمتنع عن إثبات الحقائق أو نفيها، وليس أدل على غلو الشاك فى هذا الاتجاه، أو على دقته فى تحديد موقفه من قوله : " إنى لا أعرف شيئا، بل لا أعرف أنى لا أعرف شيئا، أى أنه يشك حتى فى أنه يشك، .. فان قوام الشك الحقيقى المطلق قول " بيرون": " أن كل قضية تقبل السلب والإيجاب بقوة متعادلة"[٢].

وإلى جانب مدارس الشك المذهبى فى العصور القديمة، قدمت لنا العصور الحديثة شكاكا أيضا، ففى بدء النهضة، اجتاحت الغرب موجه من الشك، كانت موجهة بصفة خاصة ضد الدين، والشك الموجه ضد الدين يسمى إلحادا أو مروقا، وحينما ذاعت هذه الموجة من الإلحاد قام من الشكاك أنفسهم فلاسفة شكوا فى قيمة الإنسان وقيمة العلم الإنسانى ليصلوا من وراء ذلك إلى أن الدين وحده هو الذى يستطيع أن يوفر لنا اليقين، فهم قد اتخذوا من الشك فى المعرفة الإنسانية وسيلة للوصول إلى الدين، لأن الشك على حد تعبير أحدهم وهو "شارون " : " خير وسيلة

---

(١) الفلسفة مباحثها، ص ٢١٠، مقدمة فى الفلسفة العامة، ص ١٠٩.

(٢) أسس الفلسفة ص ٣٠٥ .

لتثبيت قواعد المسيحية فى قلوب هؤلاء الملاحدة الخوارج"[١]. وذلك لأن الإنسان إذا فقد ثقته بعقله فسيتجه من تلقاء نفسه إلى الوحى والإيمان .

ونجد تيارات شكية من هذا النوع، فى فرنسا ابان القرن السادس عشر، تمثل فيما بدا عند " كورنى أجريبا " ت ١٥٣٣ م و"سانشيه" ت ١٦١٠ م، و " مونتنى " ت ١٥٥٢م من نقد وهدم وزعزعة للتصورات والحقائق، التى كانت توحى للإنسان اليقين فى العلم، فتلاشت المعايير المألوفة للحكم والاختيار حتى ضل الإنسان فى عالم أصبح قلقا، وانتفى منه اليقين وصار فيه كل شىء ممكنا فبرز الشك شيئا فشيئا، إذ لو كان كل شىء ممكنا لكان معنى هذا أن ليس شىء حقا، وإذا لم يكن شىء حقا فالخطأ وحده هو المؤكد، .. استعرض " أجريبا "، جميع العلوم ثم أعلن – عام ١٥٣٧م – شكه فيها، وتناول " سانشيه"، بالنقد قوتنا الفكرية، ثم أعلن – عام ١٥٦٢ م – أننا لا نعلم شيئا، بل لا نستطيع أن نعرف شيئا، ويجئ " مونتنى "، فيعلن أن الإنسان لا يعلم شيئا، لأن الإنسان نفسه ليس شيئا، ترك " مونتنى " البحث فى العالم الخارجى لأنه عالم ظن، وراح يلتمس اليقين فى نفسه، فانتهى من دراساته لها إلى الشك والفراغ والانتهاء والموت فيما يقول " كواريه "[٢].

فهؤلاء غالوا فى الشك إلى الحد الذى جعلهم يشكون فى قيمة العقل نفسه، وفى الحقيقة ذاتها، وكان الشك هو مذهبهم، أى مبدأهم وغايتهم

---

(١) مقدمة فى الفلسفة العامة، ص١١١– ١١٢. وأيضا : فى الفلسفة دراسة ونصوص، ص ١٣٩.

(٢) أسس الفلسفة، ص ٣٠٩ – ٣١٠ وأيضا : مقدمة فى الفلسفة، ص ١١٢ .

التى لا يحيدون عنها، ولذلك سمى بالشك المذهبى وهذا النوع من الشك يناقض كل دعوة إلى العلم والمعرفة، إنه شك من أجل الشك نفسه.

ويسمى العرب هذا الطراز من الشكاك باللاأدريين، ولن نستطيع أن نقول فى الرد على هؤلاء الشكاك إلا ما قاله " بسكال" فى كتابه الخواطر : " إن من يتهكم على الفلسفة فإنه فى تهكمه هذا يتفلسف بمعنى الكلمة، وهذا معناه أن الشاك المطلق فيلسوف رغم أنفه"(١).

ثم إن الشك المطلق يتعارض مع طبيعة الإنسان ونزعته إلى العمل، والشاك يتعطل عمله . ومن جهة أخرى أية محاولة من قبلهم للاحتجاج معناها، تصديقهم بقيمة الحجة العقلية، ومن ثم فهم اعتقاديون على نحو ما، وليسوا ملتزمين بالشك، ويبدو موقفهم الاعتقادى أكثر وضوحا إذا فكرنا لحظة أنهم يلتزمون حقيقة واحدة، هى موقف الشك المطلق، أو الصمت، فهذا الالتزام إن أمكن إنما هو اعتقاد ويقين أيضا، أعنى هو بلوغ لحقيقة واحدة على الأقل، إن مذهبهم متهافت عقيم(٢).

وقد بذلت محاولات عديدة لنقض هذا المذهب، وقد صور "بوخينسكى "، محاولة القدماء لنقض مذهب الشك على النحو التالى: عندما يزعم الشاك أن المرء لا يستطيع أن يعرف شيئا فيمكن مجابهته بسؤال يقول : هل أنت على يقين من صحة هذه القضية التى تدعيها،

---

(١) مقدمة فى الفلسفة العامة، ص ١١٢ .

(٢) مع الفيلسوف، ص ١٤٦ .

فإذا كانت إجابته بالإيجاب، فإن هذا يعنى أن هناك شـــيئا يقينيـــا، وأن معرفة هذا الشيء أمر ممكن، وعلى ذلك يكون أدعاء الشاك باســـتحالة المعرفة ادعاء باطلا . وقد فطن لذلـــك أحـــد شـــكاك اليونـــان، وهـــو "إقراطيلوس "، فامتنع عن الكلام، وكان يكتفى بتحريك إصبعه . ولكن " أرسطو "، لاحظ أن "أقراطيلوس" لم يكن له الحق أيضا فـــى تحريـــك إصبعه، لأن هذه الحركة تعنى التعبير عن رأى، والشاك لا يجـــوز أن تكون له آراء .

وذهب الغزالى أيضا إلى أن الشكاك، – ويقصد بهم السوفسطائيين – يناقضون أنفسهم بأنفسهم، وذلك لأنهم يعـــترفون بالمبـــادئ العقليـــة كوسيلة للمناظرة، فى حين أنهم فى الوقت نفسه ينكرون هذه المبـــادئ. " فالسوفسطائى كيف يناظر ومناظرته فى نفسه اعتراف بطريق النظر"[١].

والاعتراض الاساسى على هذا النوع من الشك يتمثل فى الكشـــف عما يمكن فى ادعاء الشكاك من {دور} ومضمون هذا الاعتراض هو أن الشاك حين يدعى أنه ليس هناك معرفة فإنه يدعى فـــى الوقـــت نفســـه بالضرورة أن دعواه معرفة من المعارف، وبذلك تكون دعواه قد نقضت نفسها بنفسها[٢].

---

(١) تمهيد للفلسفة، د/ محمـــود حمـــدى زقـــزوق، ص ١١٧ – ١١٨، ط ٣ : الانجلـــو ١٩٨٦م. وانظر : معيار العلم، للإمام الغزالى ص ٢٤١، ط : القاهرة ١٩٦١م.

(٢) الفلسفة ومشكلة الشك، د / محمود حمـــدى زقـــزوق، ص ١٣٩، مجلـــة الحكمـــة للدراسات الفلسفية، طرابلس ١٩٧٦ م.

وبذلك يتضح لنا، أن الشك المطلق أو المذهبى، لا يستقيم فى حقيقة الأمر، إلا بالإنكار التام لحق العقل فى إصدار أى حكم من الأحكام، حتى الحكم بأننا نستطيع أن نعلم شيئا على سبيل اليقين وهو قول الشكاك أنفسهم، فإن هذا الحكم أحد أحكام العقل، ويجب بمقتضى مذهب الشك نفسه أن يوضع موضع الشك . وهو أيضا دعوى لا يمكن البرهنة على صحتها، على حد قول الشكاك، لأنهم ينكرون إمكان البرهنة على أى دعوى من الدعاوى، فمذهب الشك إذن مذهب يناقض نفسه[1].

بل إن المحققين من المتكلمين قد منع الاشتغال بالرد على هؤلاء، حيث رأوا لا فائدة من الحديث مع هؤلاء الشكاك، لأن منكر الحسيات والبديهيات لا يعدو أن يكون معتوها أو معاندا مكابرا لا يبتغى الحق، ومن ثم لا تنفع معه حجة، وفى ذلك يقول عضد الدين الإيجى : "والمناظرة معهم قد منعها المحققون، لأنها لإفادة المجهول بالمعلوم، ولا يتصور فى الضروريات كونها مجهولة، والخصم لا يعترف بمعلوم حتى يثبت به مجهول فالاشتغال به التزام لمذاهبهم، بل الطريق معهم أن تعد عليهم أمورا لا بد لهم من الاعتراف بثبوتها، حتى يظهر عنادهم، مثل : أنك هل تميز بين الألم واللذة، أو بين دخول النار والماء، أو بين مذهبك

---

(١) تمهيد للفلسفة، ص ١١٩ وأيضا : أسس الفلسفة، ص ٣١١ – ٣١٢ وقارن : المدخل إلى الفلسفة، لمؤلفه أزقلدكوليه، ص ٢٨٥، ترجمة أبو العلا عفيفى، ط : لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٢م. وأيضا : العقل والوجود، ليوسف كرم، ص ٦١ – ٦٣، ط : القاهرة . وتاريخ الفلسفة الأوربية، يوسف كرم، ص ٣١ – ٣٣، ط : القاهرة.

وما يناقضه ؟ فإن أبو إلا الاصرار أوجعوا ضربا وأصلوا نارا، أو يعترفوا بالألم وهو من الحسيات، وبالفرق بينه وبين اللذة وهو من البديهيات[١].

وإذا كان أصحاب الشك المذهبى قد قبلوا القول باستحالة المعرفة الصادقة، أو سلموا بأن تفسير الأشياء غير ميسور، فإن تسليمهم بهذا حظ من العلم – وإن كان يسيرا –، وإذا قبلوا القول بوجود هذا الحظ اليسير من المعرفة، فليس ثمة ما يمنع فى عرف المنطق من أن يقبلوا التسليم بالمعرفة على نحو أبعد أفقا وأوسع مدى[٢].

وإذا كان أنصار مذهب **{التيقن}** قد استطاعوا أن يقوضوا الشك كنظرية فى المعرفة، إلا أن الشك قد بقى عند الكثيرين **{منهجا للتفكير}**، وبقيت له قيمته فى البحث الفلسفى والعلمى فى مختلف صوره، إذ أنهم انتقلوا به من كونه غاية فى ذاته، إلى كونه وسيلة يهدف منها إلى المعرفة الصادقة، إذ أن هذا النوع – اعنى به الشك المنهجى – من الشك، لا يرفض الحقيقة بل هو مجرد طريق للوصول إليها، وهو ما سنلاحظه بعد ذلك فى فلسفة كل من حجة الإسلام "الإمام الغزالى"، والفيلسوف الغربى " ديكارت "، الذى يعد أبا للفلسفة الحديثة بشهادة جمع غفير من الكاتبين والباحثين فى حقل الفلسفة .

---

(١) المواقف، لعضد الدين الإيجى، ص ٢١، ط : المتنبى القاهرة، بدون تاريخ .

(٢) أسس الفلسفة، ص ٣١٢ .

ثانيا: الشك المنهجى:

الشك المنهجى، هو منهج يفرضه صاحبه بإرادته ويلزم به نفسه رغبة منه فى امتحان معلوماته، واختبار معرفته وتطهير عقله من كل ما يحوية من مغالطات واضاليل، وهو يمكن صاحبه من البدء بدراسة موضوعه، وكأنه لا يعلم عنه شيئا، فلا يتأثر بالأخطاء المألوفة، أو المغالطات التى يتلقاها عن غيره من الناس، أو يقرؤها فى كتب الباحثين، والإنسان بطبيعته عرضه للأحكام المبتسرة، أى السابقة .

وهذا الشك المنهجى، خير طريقة لاتقاء هذه الأخطاء، إنه خطوة تسلم إلى اليقين، أو تؤدى إلى المعرفة الصادقة، فهو وسيلة وليس غاية فى ذاته، يزاوله الباحث بإرادته، ومحض رغبته ومن ثم يستطيع التحرر من شره " إنه نتيجة عزم من الباحث على أن يشك بنظام، وبمقتضى مبدأ فى أى فكرة يمكن أن تكون مثارا للشك[1].

ثم أن الشاك منهجيا، مؤمن بوجود الحقيقة، ولكنه لا يسلم بها تسليم الاعتقاديين، من عقليين وتجريبيين، وإنما يتوجه شكه على أصول ومصادر المعرفة عند كل منهما . إذ يرى أنه لا بد من تحليل المبادئ الأولى، وأن نقطة الانطلاق فى البحث عن الحقيقة والوصول إليها بحاجة إلى جذور واحتياط، كما أنه لا بد من مناقشة المبدأ للمعرفة، سواء كان العقل أم الحس . أى لا بد من مناقشة فكرة العقل عند

---

(١) أسس الفلسفة، ص ٣١٣ وأيضا : مدخل إلى الفلسفة، ص ٣٠٣ .

العقليين، ومدى قدرته على تحصيل المعرفة ومناقشة فرض التجريبيين القائل بأن المعرفة مستحيلة خارج حدود التجربة .

فالشك هنا إذن، منهج وطريقة، إنه حركة تنظيم تخلص النفس من أعباء أفكار لا تأنس إليها ولا ترتاح لها، ليقيم على أنقاضها أفكار ترتاح وتأنس إليها، وهو أحيانا حركة فحص وعلاج يتبين ما فى الرأى من ضعف ليصلحه، وما فى الفكرة من نقص ليكملها . " وهو مدخل من مداخل اليقين، بمعنى أنه مرحلة قد يمر بها الإنسان بين إيمانين : إيمان تسليمى سابق للشك، وإيمان ممحص لاحق لمنهج الشك[١].

فالشك المنهجى يخدم كوسيلة للبحث عن الحقيقة، وليس كالشك الارتيابى، الذى لا يخرج عن دائرة نطاقه، والذى ينكر أيضا إمكانية هذا الخروج . وذلك لأن الشك المعرفى الذى يمارسه الإنسان بنفسه هو فقط الذى يمكن أن يقود إلى يقين حقيقى، يتحدث عن أعماق الشخص نفسه، حيث لا يستطيع مجرد الشك الارتيابى العشوائى أن يصل إليها .

وهذا النوع من الشك يعتبره " ديكارت " أمرا ضروريا لطلاب الحقيقة، حيث يقول : " للفحص عن الحقيقة، يحتاج الإنسان مرة فى حياته، إلى أن يضع الأشياء جميعا، موضع الشك بقدر الإمكان"[٢].

---

(١) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د / راجح عبد الحميد الكردى ص ١٠٤ – ١٠٥، ط ١ : مكتبة المؤيد الرياض ١٩٩٢ م.

(٢) مبادئ الفلسفة، ترجمة د / عثمان أمين، ص ٥٣، ط : دار الثقافة ١٩٧٥م .

وقد فطن " سقراط"[١] قديما، إلى الشك المنهجى، وأكد ضرورة استخدامه فى كل بحث نزيه، حين أخذ يناقش حكماء عصره فى معلوماتهم، ويختبر صحتها، ويكشف عن حقيقتها بإثارة الشك فى صوابها، " فإذا تأملنا منهج التهكم والتوليد الذى اتخذه، وجدنا أن جانب التهكم فيه، وهو الجانب السلبى، ليس فى حقيقة أمره إلا الشك المنهجى، يقصد به سقراط تحرير العقل من الأخطاء، وتطهيره من الأباطيل السوفسطائية، وذلك بإثارة التساؤلات والشكوك . وبعد ذلك يأتى دور التوليد، وهو الجانب الإيجابى من منهج سقراط، وفى هذه المرحلة يعمل على توليد الحقيقة من النفوس، بعد أن يكون قد طهرها من الأوهام[٢].

فالتهكم السقراطى، هو السؤال مع تصنع الجهل، أو تجاهل العالم، وهو بمثابة أداء عقلية لتنقيه الجو الفكرى عند اليونان مما أذاعه السوفسطائيون من شك وهدم للعقائد، وبذلك تعد هذه المرحلة خطوة كان لا بد منها لتطهير النفوس، وربما أشبه هذا عند علماء المسلمين ما يسمى " بالتخلية قبل التحلية " .

وهذه المرحلة من منهج سقراط هى بمثابة إعلان عن منهجه فى البحث الذى يختلف عن منهج السوفسطائيين حيث كان الجدل عندهم غاية فى ذاته، لا يبغون من ورائه الوصول إلى اكتشاف الحقيقة، فكان شكهم " مذهبيا " أما سقراط فقد اتخذ من الجدل وسيلة مؤقتة للوصول

---

(١) سقراط فيلسوف يونانى ولد عام ٤٦٩ ق.م وتوفى عام ٣٩٩ ق.م على أرجح الآراء .

(٢) تمهيد للفلسفة، ص ١٢١ . وأيضا : مدخل إلى الفلسفة، ص ٣٠٤ .

إلى توليد الحقيقة من نفوس خصومه، فكان الشك عنده منهجيا .

ولقد كان سقراط فى هذه الخطوة التهكمية يبدو شاكا فى كل شىء، حتى أنه يصل بالخصم إلى حالة عنيفة من الحيرة الذهبية لا يدرى بعدها كيف يجيب على أسئلته، ولقد عبر " مينون " فى المحاورة التى تحمل اسمه عن حالة الخصم هذه فقال : " لقد اعتدت أن أسمع عنك كثيرا يا سقراط، فقد كانوا يقولون أنك تشك فى كل شىء، وأنك تجعل غيرك يصل إلى هذه النتيجة، ويبدو لى الآن أنهم كانوا على حق فى قولهم هذا، فأنت – فيما اعتقد أشبه ما تكون بسمكة البحر التى يطلقون عليها اسم سمكة الرعد، والتى يقال أنها تصيب بالرعشة والتخدير كل من يلمسها أو يقترب منها، ولقد فعلت ذلك معى فأصبتني بالرعشة فى جسمى وروحى معا، فلم أعد أدرى كيف أحيرك جوابا"[١].

وعندما ينتهى " سقراط " من تطير نفس خصمه من المعارف المشوهة التى تلقاها فى المجتمع بالممارسة، أو عن طريق تأثير أقرانه، يبدأ مرحلة جديدة وهى التوليد، وفيها يبدأ بإعادة بناء المعرفة بعد إزالة آثار المعارف السوفسطائية المشوهة، بتوجيه الأسئلة التى تساعد على توليد المعارف الثابتة بالفطرة، ويقوم هو بدور الموجه والمصحح فقط[٢] فهو يبغى أولا تطهير العقل، ثم يواصل طريقه إلى اليقين .

وفطن إلى الشك المنهجى أيضا " أرسطو"، وفرق بينه وبين الشك

---

(١) المنهج الجدلى عند هيجل، د / عبد الفتاح إمام، ص ٦٦، ط : دار المعارف ١٩٦٩م.
(٢) انظر : كتابنا، الفلسفة الإغريقية من طاليس إلى ابرقلوس، ص ١٤٣ – ١٤٧ .

الحقيقى، فأهمل هذا وأيد الشك المنهجى، وأوصى بمزاولته عند البدء بدراسة أى بحث علمى، إذ وجد {أرسطو} – فيما يقول – علاقة ضرورية بين الشك والمعرفة الصحيحة، ورأى أن من يريد أن يكسب ملكة تحصيل المعرفة يجد فى الشك الذى يقوم على التروى والتبصر تحقيقا لغايته، لأن المعرفة التى تعقب الشك تكون أدنى إلى الصواب، ولهذا نجده يقول : " إن الذين يقومون ببحث علمى من غير أن يسبقوه بشك يزاولونه، يشبهون الذين يسيرون على غير هدى، فلا يعرفون الاتجاه الذى ينبغى أن يسلكوه"(١).

ومثل هذا الشك المنهجى قد عرفته العصور الوسطى، ممثلا فى القديس { أوغسطين*} – ٣٥٤/٤٣٠ م، الذى مر بمرحلة من الشك العميق، ويتميز شكه بثلاث خصائص جديدة : الأولى : أن شكه تجربة حية عاشها، وبهذا كان أول من عاش تجربة شك عميقة.– من ذلك النوع الشك الذى مر به الإمام الغزالى – والخاصية الثانية : هى أنه عابر، وقتى، ويمثل لحظة فى تطوره الروحى . والخاصية الثالثة : هى أن الشك تعبير عن لحظة السلب أنه فى طريق المؤمن، بمثابة معبر لا بد أن يمر عليه للانتقال بعده إلى الحقيقة(٢).

---

(١) أسس الفلسفة، ص ٣١٥ .

* القديس أوغسطين : هو من أكبر فلاسفة المسيحية، ولد عام ٣٥٤، قرأ الفلسفة، واندفع فى طلب الحقيقة التى تحصل بها السعادة، كما يقرر الفلاسفة، وقد عاش تجربة الشك المنهجى، انتهى منها إلى الإيمان بالمسيحية، وحل مشكلاتها عن طريق الفلسفة، وتوفى ٤٣٠ م.

(٢) مدخل جديد إلى الفلسفة، ص ١٢٠ – ١٢١ .

وجاء { فرانسيس بيكون} فى أوائل العصر الحديث، فأراد أن يخلص البحث العلمى التجريبى من الأوهام التى اعترضت سبيله فحذرنا مما أسماه أوهام المسرح، التى هى عبارة عن مجموعة التخمينات والفروض الوهمية، التى كثيرا ما ضللت الفلاسفة والعلماء، وشككنا " بيكون " فى هذه الأوهام واستبعدها من طريق البحث العلمى[1].

وبعد هذا التمهيد للشك المنهجى، الذى استعرضنا فيه، بعض النماذج التى سلكت هذا النوع من الشك، قديما، ووسيطا، فأمامنا الآن، تجربتين لهذا النمط من الشك المنهجى، وهما بيت القصيد فى بحثنا هذا، تجربة الإمام الغزالى فى الفكر الإسلامى وتجربة ديكارت فى الفكر الغربى .

---

(١) لمحات من الفلسفة الحديثة والمعاصرة، د / محمد المهدى، ص ٥٦ ـ ٥٧ . ط ١ : النور ٢٠٠١م.

المبحث الثالث

الشك المنهجى عند الغزالى

تمهيد:

الإمام الغزالى هو : أبوحامد محمد بن أحمد الغزالى . ولد فى مدينة { طوس} من أعمال خرسان من أسرة فارسية، عام ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٨م، وتوفى فى طوس عام ٥٠٥هـ الموافق ١١١١م. لا يرتاب راسخ فى العلم، فى براعته فى علوم الفقه، والجدل وأصول الفقه، والمنطق، والفلسفة، فقد أحكم هذه العلوم، وفهم كلام أصحابها، حتى تصدى للرد على مبطلهم، وإبطال دعاويهم.

فهو علم من أعلام الإسلام، الذين تربوا فى مدرسته، ونهلوا من معارفه ومبادئه السامية، وهو أحد الذين جددوا لأمة الإسلام دينها فى القرن الخامس الهجرى . وقد استطاع العمل الفذ الذى قام به الغزالى، أن يحتفظ بفاعليته على مر القرون، ويؤثر تأثيرا كبيرا حتى اليوم على الحياة العقلية فى العالم الإسلامى .

وقد نهل الغزالى من كل ثقافة، وروى من كل مشرع، وقد ساعده عدم تعصبه على أن يأخذ الحق أنى وجده، ولو من فم كافر، ولهذا ظهر الغزالى وفيه شبه بكل أولئك الذين قرأ لهم، وأخذ عنهم، وهذا ما جعل الناس يتنازعونه، فالفلاسفة يرونه فيلسوفا والمتكلمين يرونه متكلما، والمتصوفة يرونه متصوفا، والباطنية يرونه باطنيا، حتى قال فيه

الشيخ المراغى رحمه الله تعالى :" إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم وشعب المعرفة، ... أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد . قدره وقيمته، يخطر بالبال الغزالى الأصولى الحاذق الماهر، والغزالى الفقيه الحر، والغزالى المتكلم، إمام أهل السنة وحامى حماها، والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم، والغزالى الفيلسوف، أو الذى ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها من زخرف وزيف، والغزالى المربى، والغزالى الصوفى الزاهد، وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره، رجل متعطش إلى معرفة كل شيء، نهم إلى جميع فروع المعرفة"(١). ولذلك كله استحق أن يلقب { بحجة الإسلام}، لأنه يسير فى الاتجاه العام الواضح للروح الإسلامية، وهى ضرورة الجمع بين الدين والعقل .

أما عن عصر الغزالى الذى عاش فيه، فقد كان عصر فتن واضطراب، حافل بالتغيرات الاجتماعية، والتطورات الثقافية والسياسية، وجاء الغزالى وسط معترك تصطخب فيه الآراء والعقائد والمذاهب، والمقالات المتناقضة . وقد لاطف الغزالى شتى الفرق ليخفف من جمودهم وعصبيتهم، ولئلا يصيبه شرورهم ولكن أنى له ذلك، وكل حزب بما لديهم فرحون .

فقد ازدحم عصر الغزالى بوجه خاص، بمشكلات دينية وكانت

---

(١) الحقيقة فى نظر الغزالى، د / سليمان دنيا، ص ٩ – ١٠، ط ٤ : دار المعارف ١٩٧١م.

هناك مدارس كثيرة، وطوائف دينية متعددة، ومن بين الاتجاهات الأربع الرئيسية كانت هناك ثلاثة اتجاهات من نوع دينى، وهى اتجاهات المتكلمين والباطنية والصوفية وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك طوائف الفلاسفة . وموقف هذه الطوائف من أمور العقيدة، كان يتمثل فى أن هذه الأمور إما أن تؤخذ مستقلة استقلالا تاما عن العقل كما فى اتجاه الباطنية، وإما أن تكون – فى الظاهر – مبنية على براهين مطابقة للعقل كما فى اتجاه المتكلمين، فى حين أن تدين بعض المتصوفة واتجاه الفلاسفة يميلان إلى رفع التكاليف الدينية، وقد كان الفكر عند كل هذه الطوائف بوجه عام قائما على التقليد، أى التسليم إما بنظرية الباطنية فى الإمام المعصوم، أو بتعاليم العقيدة السائدة، أو بتعاليم الفلسفة اليونانية من جانب الفلاسفة المسلمين(١).

وقد عرف الغزالى أن هذا الفكر القائم على التقليد يمثل المشكلة الكبرى لعصره، ولهذا رأى من واجبه مكافحة كل أشكال التقليد، فهو أبعد الناس عن أن يدع فكره يتحدد عن طريق عقلية عصره، تلك العقلية التى اتخذها فقط نقطة انطلاق لتفلسفه .

ولقد توصل الغزالى من خلال تحليله لعصره، إلى أن هذا العصر، فى حالة انحدار عقلى وخلقى، بطريقة لا يمكن إيقاف حدتها، وتلفت حواليه باحثا عن القوى الإيجابية التى كان يمكن أن تواجه هذا

---

(١) المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت، د / محمود حمدى زقزوق ص ٤٦، ط ٢: الانجلو ١٩٨٢م.

الاتحلال، ولكن بدون جدوى، فالأطباء هم أنفسهم مرضى، لذلك جاس الغزالى خلال ديار كل من المتكلمين الذين يدعون أنهم أهل النظر والرأى، والباطنية، التى زعمت أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم والفلاسفة أهل المنطق والبرهان، والصوفية أولئك القائلون : إنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة، ولم يبق من أهل التقليد، وانتهى الأمر به إلى أن أصبح متصوفا، ومؤسسا للمعرفة على أساس عقلى يقينى .

" وأصبح الغزالى شخصية مختلفة عن كل فرقة، فهو شخصية باحثة ناقدة، تؤمن بإمكان الحقيقة، ولكن على أساس من الشك والتمحيص المنهجى، وهذا الشك الذى اعتنقه الغزالى منهجا للبحث عن الحقيقة، لم يثنه عن الاقتناع التام بالحقيقة، وعن الاعتراف بإمكان معرفتها، ولكن الذى كان يشغله هو تمحيص هذه الأداة العارفة للحقيقة واليقين، ومن ثم تجاوز قنطرة الإيمان بالحق إلى الإيقان به يقينا لا يقارنه إمكان الغلط والوهم فيه[1].

وقد وصف أبو حامد الغزالى مسيرته التحصيلية قائلا : " لم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل سن العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمراته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل فى كل مظلمة،

---

(١) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص ١٠٧ .

وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة وأتفحص عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وكان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبى وديدنى، من أول أمرى وريعان عمرى، غريزة وفطرة من الله – تعالى – وضعها فى جبلتى، لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلت عنى رابطة التقليد، وانحسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا"[1].

وقد كان هذا الميل دافعا له إلى النظر فى كل فكرة يقع عليها فيحللها وينقدها، ليميز الغث من السمين، ويفصل الحق عن الباطل، إذ هالة هذا الكم الهائل من المذاهب والفرق، مما يشير إلى وعورة الطريق وعمق المحيط الذى غرق فيه الكثيرون، وما نجا منه إلا الأقلون.

نخلص مما سبق إلى أن طابع العصر العلمى الذى عاشة الغزالى، لم يكن موحيا بالثقة، لأن ما كان سائدا فى عصره الطابع التقليدى

---

(١) المنقذ من الضلال، للإمام الغزالى، ص ٤، ط : صبيح ١٩٧٢م.

معيار اليقين فى منهج الغزالى الشكى:

العلم اليقينى هو المقصد والغاية لكل باحث غير مقلد، وهذا النوع من العلم، هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، وفى هذا يقول الغزالى : " فقلت فى نفسى : أولا، إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو : الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه – مثلا – من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وإنكارا، فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لى قائل : لا بل الثلاثة أكثر، بدليل أنى أقلب هذا العصا ثعبانا، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك – بسببه – فى معرفتى، ولم يحصل لى منه إلا التعجب، من كيفية قدرته عليه، فأما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقنه على هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه، فليس بعلم يقينى"(١).

فمقياس اليقين إذن هو : الأمان، ومعنى الأمان الثقة، ومعيار الثقة انكشاف المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، وبذلك تتحدد فى ضوء العلم اليقينى درجات المعرفة، وبالتالى أدواتها التى تحصل بها.

---

(١) المنقذ، ص ٤ – ٥ .

ولما أخضع الغزالى كل معارفه ومعلوماته لهذا المقياس الذى تقاس به يقينيه الأفكار وحقيقتها لم يجد عنده من العلم الذى يبلغ مرتبة اليقين، أول الأمر، إلا المعارف الحسية، ثم الجليات والبديهات العقلية الضرورية، ولكنه رأى أن من الواجب عليه أن يمتحن هذه الجليات ويتأملها، ويقيس درجة يقينها . ورأى أن يشكك نفسه فيها ليعرف ما إذا كانت ثقته فيها، وأمانه من الخطأ فيها مثل ثقة عامة الناس، فيما يتعلق بالمعارف التقليدية الموروثة، أو من قبيل الثقة التى عند أكثر الناس فيما يتعلق بالمعارف النظرية، أم هى ثقة لا غدر فيها ولا غائلة؟

يقول الغزالى : " ثم فتشت فى علومى فوجدت نفسى عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة إلا فى فى الحسيات والضروريات فقلت : الآن بعد حصول اليأس، لا مطمع فى اقتباس المشكلات إلا من الجليات وهى الحسيات والضروريات، فلا بد من إحكامها أولا لأتيقن أن ثقتى بالمحسوسات، وأمانى من الغلط فى الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليديات، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له"[1].

شك الغزالى فى الحس:

بدأ الغزالى باختبار الحواس، مفترضا أن اليقين الذى يبحث عنه قد يكون موجودا فى المعرفة الحسية، لكنه بعد بحث دائب ثبت له أن المحسوسات مليئة بالأخطاء، والمغالطات المنافية لليقين لذلك رفضها

---

(١) السابق، ص ٥ .

وطرحها جانبا . يقول الغزالى : " أقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات، وأنظر هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها، فإنتهى بى طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات وأخذت تتسع للشك فيها وتقول : من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهى تنظر إلى الظل، فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفى الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة، بعد ساعة تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل على التدريج، ذرة ذرة، حتى إنه لم تكن له حالة وقوف[١].

وتنظر تلك الحاسة إلى الشمس فتراها صغيرة جدا، وأن الكواكب تبدو لها وكأنها دنانير منثورة على بساط أزرق، فى حين أن العقل ببراهينه يعرف أن قرص الشمس أكبر من الكرة الأرضية، وأن الكواكب أكبر مما تبدو لنا "[٢]. هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيه حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته، فقلت : بطلت الثقة بالمحسوسات[٣].

إن هذا الاختبار للحواس، أكد للغزالى، أن شكه فيها كوسيلة من وسائل الادراك والمعرفة اليقينية كان شكا صحيحا، ذلك أن الحس قد يحكم على الساكن أنه متحرك والعكس، وعلى الكبير بأنه صغير

---

(١) نفس المصدر، ص ٥، ٦ .

(٢) معيار العلم، ص ٦٢ .

(٣) المنقذ، ص ٦ .

والعكس، ومن هنا قرر أن المعارف الحسية جميعها غير يقينية، ولذلك فلا تمثل علما حقيقيا .

شك الغزالى فى العقل:

شرع الغزالى بعد ذلك فى اختبار العقل واستدلالاته المنطقية بعد أن رأى ما تنطوى عليه المعارف الحسية من خداع وشكوك ولهذا قرر رفضها مبدئيا فى أثناء مواصلة السير للبحث عن العلم اليقينى . وذلك طبقا للمبدأ الذى يتمثل فى أنه لا ينبغى أن يعترف بصفة العلم اليقينى إلا للمعرفة المستمدة من مصدر مؤكد، وغير قابل للشك .

إن أولية ويقين المبادئ العقلية، تبدو فى بادئ الأمر غير قابلة للشك، يقول الغزالى : " لعله لا ثقة إلا بالعقليات، التى هى من الأوليات، كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة، والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد، والشىء الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما، فى وقت واحد"(١).

لكن الغزالى شك فيها أيضا، لأننا نستطيع أن نتصور وراء حاكم العقل حاكما آخر، إذا تجلى كذب العقل فى حكمه، فكيف نثق بالعقليات ؟ فالعقل يكذب الإحساس، والإحساس يكذب العقل، كأن هنالك مأساة تنتصر فيها المحسوسات على العقليات تارة، والعقليات على المحسوسات تارة أخرى . يقول الغزالى : " فقالت المحسوسات : بم تأمن أن تكون

---

(١) السابق .

ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات؟ وقد كنت واثقا بى، فجاء حاكم العقل فكذبنى، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ؟ لعل وراء إدراك العقل حاكما آخر، إذا تجلى كذب العقل فى حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه، وعدم تجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته"[١].

وهذا الحاكم الآخر الذى يشير إليه الغزالى، يرجع إلى الحالة التى تطرأ على النفس فى النوم، حيث أننا نعتقد فى النوم أمورا ونتخيل احوالا لا نشك فيها، ثم نستيقظ فنعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتنا ومعتقداتنا أصل وطائل، فبم نأمن أن يكون جميع ما نعتقده فى يقظتنا بحسنا وعقلنا حقا، ألا يمكن أن تطرأ علينا حالة تكون نسبتها إلى يقظتنا كنسبة يقظتنا إلى نومنا، وتكون يقظتنا نوما بالإضافة إليها[٢].

فالغزالى هنا يتأمل فى حالة الرؤيا، حيث تنخفض فيها قدرة الإنسان على المعرفة، فالوعى يكون معزولا، ويصير النائم خاضعا لما يحدث فى أثناء الرؤيا من تخيلات معتقدا أنها حقائق ويعرف ابتداء فى حالة اليقظة – بعد استعادة الوعى – أن هذه التصورات لم تكن إلا خيالات وأوهاما[٣].

ولما خطرت للغزالى هذه الخواطر، وانقدحت فى نفسه حلول أن يجد لشكه علاجا فلم يتيسر له ذلك، فاعضل هذا الداء ودام قريبا من

---

(١) نفس المصدر .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المنهج الفلسفى، ص ٧٩ .

شهرين، وهو فيها على مذهب السفسطة، حتى شفاه الله من ذلك المرض بنور قذفه فى صدره . يقول الغزالى : " فلما خطرت لى هذه الخواطر، وانقدحت فى النفس، حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، وهذه لم تكن مسلمة عندى، فأعضل هذا الداء، ودام قريبا من شهرين، أنا فيها على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين، لم يكن ذلك بنظم دليل وتركيب كلام، بل بنور قذفه الله توالى فى الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة"[١].

فما هو هذا النور الذى قذفه الله فى الصدر ؟ أننا لا نجد لهذا النور سوى تفسير واحد، وهو قولنا أنه " كشف باطنى، أو حدس داخلى "، يطلع النفس مباشرة على البديهيات والحقائق الأولى، لأن الأوليات لا تدرك بالنظر والاستدلال، بل تدرك بالحدس، وهى حاضرة فى الذهن[٢]، والحاضر كما يقول الغزالى : " إذا طلب فقد واختفى، ومن طلب ما لا يطلب، فلا يتهم بالتقصير فى طلب ما يطلب"[٣].

---

(١) المنقذ، ص ٧ .

(٢) تاريخ الفلسفة العربية، د / جميل صليبا، ص ٣٩٦، ط ٢ : بيروت دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٣م.

(٣) المنقذ، ص ٨ .

ويحدد الغزالى المعرفة الحدسية فيقول : " من مارس العلوم يحصل له عن طريق الحدس قضايا لا يمكنه إقامة البرهان عليها ولا يمكنه أن يشك فيها، ولا يمكنه أن يشرك فيها غيره بالتعليم إلا أن يدل الطالب على الطريق الذى سلكه واستنهجه"(١).

فالذى يشتغل بالعلوم كما هو واضح من كلام الغزالى يتوصل عن طريق الحدس إلى معارف كثيرة، غير أنه لا يستطيع أن يبرهن عليها، وهذه المعارف يصل إليها المرء عن طريق عقلى علمى دارس، كما أن الذى يحصل على هذه المعارف لا يستطيع أن يشك فيها، لأن هذه المعارف الحدسية فيها اليقين المطلق، الذى ينشده الغزالى للعلم الحقيقى.

فالمعرفة الحدسية، إذن، نور يقذفه الله تعالى فى الصدر يشاهد الباحث عن الحقيقة، فى هذا النور التأسيس المطلق للحقيقة التى تتمثل فى معرفة الله تعالى . يقول الغزالى فى كتابه الإحياء: " إن معرفة الله تحدث بواسطة هذا النور"(٢).

وقد صور الغزالى عقل الإنسان، تصويرا حسيا، ويعنى العقل حين يكون قد تطهر وصفا، أى تحرر من كل تدخل عن طريق الحس والوهم، يقول الغزالى " إنه أنموذج من نور الله"(٣) ولكن العقل استعار

---

(١) معيار العلم، ص ١٩٢ .

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالى، ٥٨/١، ط : القاهرة .

(٣) مشكاة الأنوار، للغزالى، تحقيق الشيخ أبو العلا عفيفى، ص ٨، ط : الهيئة العامة للكتاب .

النور من الله تعالى، إذ أنه يتلقى النور منه فالله هو الذى يرسل النور، لأن الله وحده هو الذى يسمى نورا بالمعنى الحقيقى، كما صرح بذلك الإمام الغزالى فى مشكاة الأنوار.

فالبحث عن يقين مطلق، قد جعل الغزالى يتجرد من كل ما ليس له هذا الوضوح المطلق : أى من العالم الخارجى الذى منه أيضا جسمه، ومن الحقائق الضرورية العقلية، حتى وجد نفسه فى النهاية عاطلا كلية من أى علم يقينى، وأصبح لا حول له ولا قوة . ولكن الحل قد حدث عن طريق العقل الصافى الذى يدرك نفسه فى جوهرها، ويدرك أن هذا النور مؤسس فى الله تعالى، والإنسان حاصل على هذا النور لأنه مخلوق على صورة الله، وهذا النور الذى لديه هو الذى يجعل معرفة الأصل ممكنة[1].

فالمعرفة التى توصل إليها الغزالى من شكه، هى المعرفة الحدسية، وهى معرفة لا شعورية، عبارة عن نور قذفه الله تعالى فى صدره، ولكنه لم يكن بمعزل عن العقل، إذ أن العقل إذا صفا فإنه يستمد نوره من النور الحقيقى، وهو الله تعالى . وحقيقة الأمر أن الذى وجده الغزالى لم يكن غائبا عنه، ولكن بمنهجه الشكى أيقن به . ذلك العلم اليقينى، أو المعرفة اليقينية البديهية، المتمثلة فى معرفة الله بالفطرة، والتى تلازم معرفة الإنسان لذاته ولوجوده إنها الفطرة الإنسانية

---

(١) المنهج الفلسفى، ص ٦٠٧.

المخلوقة لله تعالى، والمودع فيها الإيمان بوجودها، مع الإيمان بوجود الله تعالى .

وينبغى أن ننوه إلى أن التعبير عن هذه المعرفة الفطرية اليقينية، معرفة الذات ومعرفة الله، المؤسسة للعلم اليقينى، والتى تعطى الضروريات العقلية الثقة حتى تجعل العقل طريقا موثوقا للمعرفة، إن التعبير عنها فى أقوال الغزالى بالنور، أو الالهام، أو الكشف، لا ينبغى كما يقول أحد الباحثين[1]. أن يستدرجنا للحكم بأن حله للقضية كان صوفيا، ذلك أنه عبر عنها أيضا " بالحدس " فى مواضع أخرى.

كما عبر عن طريقها بأنها البصيرة الباطنة، وكل ما هنالك أنها هى سواء بتعبيره الفلسفى لها، أو بتعبيره الصوفى، سيما إذا علمنا أن الغزالى لم يكن على طريق الصوفية المتطرفين الذين يهاجمون العقل، ذلك العقل الذى يفهمه الغزالى على أنه الجهة المدركة فى الإنسان، والذى يتجاوز العقل الفلسفى الذى يعمل بطريق البرهان المنطقى، ولا يعترف بغيره طريقا لليقين .

بل إن الفطرة الإنسانية عند الغزالى، وكما نعتقد مؤسسة على هذا اليقين، وليس الطريق المنطقى البرهانى إلا طريقا من طرق اليقين، بل لا قيمة له فى الوصول إلى اليقين ما لم يعتمد على الضروريات العقلية اليقينية التى أكرم الله بها الفطرة الإنسانية المخلوقة لله، والعارفة بذاتها وبربها .

---

(١) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص ١١٤ .

ومهما يكن من شيء، فإن الكشف الباطنى أو الحدس الداخلى الذى قال به الغزالى، هو مفتاح العلوم، ومصدر الحقائق الدينية فلولاه لما ترفع الغزالى عن طريقة التقليد، ولا استطاع أن يخرج من الشك، ويعود إلى اليقين وكل من قرأ كتابى " التأملات" و" مقال عن المنهج " لديكارت، ورأى كيف انتقل هذا الفيلسوف من الشك إلى اليقين بالحدس العقلى ومعرفة الذات، وكيف جعل معيار اليقين مبنيا على بداهة المعانى، لم يخف عليه ما بين إمام الفلسفة الحديثة، والغزالى من تشابه، كلاهما يصرح بأنه لا يقبل شيئا على أنه حق إلا إذا انكشف له انكشافا بديهيا واضحا، " والفرق بين الغزالى وديكارت فى الخروج من الشك، إن الأول جعل النور منبجسا من الجود الإلهى على حين أن الثانى جعله قائما على " الكوجيتو" أى معرفة الذات، ومعرفة اعتماد الذات اعتمادا مطلقا على الله، وهو الأمر الذى لم تستطع رحاب الشك أن تمتد إليه .

وسواء أكان رجوع النفس إلى اليقين بمعونة خارجية، أم بنقد داخلى ذاتى، فإن أمرا واحدا لا ريب فيه، وهو أن مفتاح المعرفة فى كلا الحالين هو " الحدس"[١].

وقد استمر الإمام الغزالى، فى تأكيد وتأسيس دعائم منهجه الفلسفى، الذى ارتضاه لنفسه، وختم بيانه لأزمة الشك التى تعرض لها،

---

(١) تاريخ الفلسفة العربية، ص ٣٩٧ .

وكيف خرج منها بقوله : إن المقصود من هذه الحكاية، هو تنبيه الباحث المفكر إلى أنه يجب عليه أن يجتهد فى بلوغ الكمال فى طلب الحقيقة حتى ينتهى إلى تمحيص الأوليات البديهية، مع أنها ليست موضوعا للتمحيص، والإنسان إذا محص ونقد الأشياء البينة بنفسها المقبولة، لم يستطع أحد أن يتهمه بعد ذلك بالتقصير فى تمحيص ما ليس بديهيا من المعارف والآراء، التى هى موضوع البحث والطلب[1].

وبعد أن وجد الغزالى حلا لأزمته التى استمرت شهرين وأصبح بعد الحل معتمدا فقط على المبادئ العقلية التى عرف يقينها اتجه لكشف الحقيقة فى تعاليم الاتجاهات القائمة، ودرس التصوف على أنه الاتجاه الرابع والأخير، دراسة عميقة مستفيضة . وقد قرر الغزالى نتيجة لهذه الدراسة، بعد أزمة نفسية عنيفة، التحول إلى التصوف وممارسته عمليا وذلك لنه رأى أنه يجب عليه أن يغير اتجاه حياته الحالى، وهذه الأزمة الثانية التى استمرت ستة أشهر، والتى يجب تميزها بعناية عن الأزمة الأولى التى نشأت بسبب الشك الفلسفى، إذ الأزمة الثانية كان طابعها دينى، وانتهت بقراره ممارسة التصوف عمليا، بعد مغادرته بغداد .

بل لقد اشتدت ضراوة هذه الأزمة النفسية، فنجمت عنها مظاهر مرضية جسمية، منها : عجز اللسان عن الكلام، وتأثر الأجهزة الجسمية الداخلية وامتناعها عن القيام بوظائفها، وكان الغزالى يشير بذلك إلى

---

(١) المنقذ من الضلال، ص ٧ – ٨ .

الانتصار التدريجى للإرادة المتجهة إلى السلوك الصوفى، لكى تتطابق مع النظر الصحيح، أو بمعنى آخر إلى سعى الإرادة إلى التحرر تدريجيا من ربق الشهوات والاقتراب من نور العقل الصحيح .

يقول الغزالى : " ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية، وعنمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل، وأن العمل يقضى بقطع علاقة القلب عن الدنيا، بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق، والاتجاه كلية إلى الله تعالى، ... ولم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الأخرة قريبا من ستة أشهر، وأخيرا جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب، بطل معه قوة الهضم واشتهاء الطعام والشراب، ويئس الاطباء من العلاج، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ولا علاج له إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم[1].

فهذه أزمة نفسية حادة،تعرض لها الغزالى فى حياته، اقتلعته من جذور بيئته، وألقت به إلى تجربة جديدة انعزل فيها عن الناس وسلك نهجا جديدا من العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب، وذلك بعد أن اعتقل لسانه وعجز عن التدريس، فدخل الخلوة واشتغل بالرياضة والمجاهدة، فلنقدح

---

(١) السابق، ص ٢٧ – ٣٠ .

له عالم جديد، لذلك خرج من بغداد إلى دمشق ثم إلى القدس، وظل سنتين لا شغل له إلا العزلة والتأمل، فكان يصعد إلى منارة المسجد، أو يدخل الصخرة ويغلق بابها على نفسه[1].وقد دام الغزالى على حياة التصوف، قرابة عشر سنين انكشف له فيها، أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها . وبذلك انتهى تفتيش الغزالى عن الحقيقة، إذ وجدها فى طريقة الصوفية فسلكها واستقر عليها .

تعقيب وتقويم لمنهج الغزالى الشكى:

عندما لا تظهر لنا حقائق الأمور بجلاء ووضوح، يحق لنا أن نشك، بل يجب علينا، وقد أحسن الغزالى صنعا فى طلبه اليقين عن طريق الشك فى التقاليد والعقائد الموروثة فى أى نوع كانت هذه الأمور تأتينا عن طريق الحواس أو العقل، فمن حقنا أن نعيد النظر فيها لنتبناها أو نرفضها، عن اقتناع، فالشك هنا طريقة علمية للتثبت من الشىء قبل التسليم به .

والغزالى قد بدأ بشك منهجى قويم، سبق إليه فلاسفة العصر الحديث، وعلى رأسهم إمام الفلسفة الحديثة " ديكارت "، الذى تأثر كثيرا فى بناء منهجه بالغزالى . فقد بحث عن منقذ لضلاله فكانت محاولته جديدة فى تراث الفكر العربى، ومهما تكن نتيجة بحثه يبقى له الفضل الأول فى بناء منهجية جديدة، بدأت تبشر بنمط فكرى جديد .

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠ .

وقد كان الباعث الأول لشك الغزالى المنهجى، هو حبه للحقيقة وحده، وإرادة الوصول إلى العلم اليقينى، وليس مجرد شك لذاته أى لاجل البلبلة الفكرية، وإحداث الاضطراب العقلى، دون ما هدف أو غاية . ولعلنا هنا نتذكر قول الغزالى، حول قيمة الشك كوسيلة للوصول إلى اليقين، إذ يقول : " من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال"(١).

بعد أن شك الإمام "الغزالى"، فى معارف عصره، وفى معطيات حواسه وعقله، ورأى أن المحسوسات تكذب العقل والعقل يكذب الحس، خرج من حال الشك إلى حال اليقين، ولم يكن ذلك – كما يقول – ؟ بنظم دليل، أو ترتيب كلام "، أى لم يكن ذلك ببراهين الفلاسفة المنطقية، ولا بحجج المتكلمين الجدلية، بل بنور قذفه الله تعالى فى صدره . فحاكم اليقين إذن عند "الغزالى" منبعه خارج الذات، يهبط إليها من الله جل جلاله، وبهذا النور الآتى إليه من الخارج عاد إلى نفسه فآمن بها بعد إنكار، وآمن بالعلم الصحيح بعد ارتياب وشك .

والغزالى فى شكه المنهجى، لم يكن رافضا لتعاليم الإسلام ومنكرا للإيمان، بل تراه يعتصم بالله، ويقول : " الأصول الثلاثة يعنى الله، والنبوة، واليوم الآخر، من الإيمان، كانت قد رسخت فى نفسه، لا بدليل معين محرر، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر

---

(١) ميزان العمل، ص ١٧٥، ط ١ مكتبة الجندى ١٩٧٣م.

تفاصيلها"[١]. إذن معرفة الله، والشك فيه لم تكن داخله فى تجربته التى عاشها، بل كل ما هنالك أن الجو الفكرى كان مشبعا بالآراء والمذاهب المتضاربة، فأراد أن لا يكون إيمانه قائما على مجرد التلقين والتقليد، وهو بهذا كله يريد أن يتجاوز درجة الإيمان إلى اليقين . " بين الإنسان كعارف وبينه كمؤمن، وهل يستطيع الوصول إلى درجة اليقين فى موضوعات إيمانه، وإذا كان فى استطاعته فأين تكون هذه القدرة ؟، وكيف يمكن تعهدها بالعناية؟ فهدف الغزالى، هو اليقين فى الله عن طريق معرفته، ولم يكن يشك أبدا فى موضوع معرفته، وهو الإيمان بالله تعالى"[٢].

وأن الغزالى تحدوه كذلك، وهو يرسم طريق الشك فى المحسوسات والمعقولات رغبة فى أن يطعن الفلسفة الوثنية، التى نقلت إلى بلاد الإسلام فى عصره وشاعت، والتى تعتمد على مناهج العقل والحس، وتبعد عن طريق الشرع .وفى الوقت نفسه، وهو يسترد الثقة بالعقل، إنما يريد أن يقف فى وجه الباطنية التى ألغت العقل، وهو لا يريد أن يدرك حقائق الإيمان بالتقليد . كما لا يرى أن طريق علم الكلام الجدلى يعطيه مثل هذا اليقين، وانتهاؤه إلى الصوفية إنما كان ليعيش هذا الإيمان، ولم يكن خروجا على منهجة، أو على العقل، المؤسس تأسيسا سليما، وهو بذلك كله يريد صياغة منهج مستقل يعتمد الشرع والعقل معا، الشرع الذى يخاطب العقل، والعقل الذى يستند إلى النور الربانى،

---

(١) المنقذ من الضلال، ص ٢٨ .

(٢) الإنسان عند الغزالى، د/ على عيسى عثمان، ص ٣١، ط : الانجلو ١٩٦٢م.

فيعيش الحقائق فى وجدانه فى الوقت الذى يستمتع فيه بالصحوة العقلية المستندة إلى نور الله، وعن طريق البصيرة الباطنة، التى هى عين النفس المدركة[١].

ولكن مع هذا التبرير، لمنهج الغزالى الشكى، نقول هل أوجد الغزالى حلا منطقيا لمحنة الشك، يصح أن يكون حلا نموذجيا للتفكير ؟ الجواب : لا . لقد عجز الغزالى عن إيجاد حل لمحنته وأما ما ذكره من حل فهو شخصى، يصح أن يكون له ولا يتأتى لغيره، خرج بنور قذفه الله فى الصدر. فإذا لم يقذفه الله فما الحل؟

فكأنه أوتى اليقين عندما عجز العقل عن الوصول إلى ما يهدف إليه . وهل بقى فى شك من المحسوسات والعقليات ؟ ذلك النور كان شافيا لثورته الشكلية إلى أن " أصبحت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها فى أمن ويقين " فهو قد رضى عن العقل ولم يتخل عنه، بل خاض به فى علوم القوم بعد ما تبين له أن الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة : علم الكلام،الفلسفة، والباطنية والتصوف، واثبت عجز تلك العلوم عن معرفة الحقيقة، ومع أنه أعطى اليقين من النور الإلهى، فإننا لا نشك فى أن الغزالى دخل مع المذاهب بعقله، ليناقش قدرة العقل على البحث، ومدى قدرته على اليقين[٢].

---

(١) نظرية المعرفة، ص ١١٥.

(٢) الإمام الغزالى وعلاقة اليقين بالعقل، د / محمد إبراهيم الفيومى، ص ١١٠ – ١١١، ط : الانجلو ١٩٧٦م.

كل هذا إجهاد للبحث والإنسان، وإجهاد للحقيقة، ووضع للشوك فى طريق الناس إليها . فهل يستطيع كل فرد أن يمر بتجربة الغزالى الشكية حتى يصل إلى اليقين ؟ وهل يحرم عامة الناس من اليقين إذا لم يسيروا فى الشك المنهجى؟

لقد أجهد الغزالى نفسه كثيراء وهو معذور نظرا لتقلبه بين طوائف الباحثين الذين تمثل كل طائفة منهم خروجا على بساطة العقيدة، ومنهج القرآن، وإلا فما الذى انتهى إليه الغزالى من وجهة نظر المتدين العادى غير المتفلسف . هل أعطى الحقيقة وجودا غير وجودها ؟ أم أنه أعطى العقل ثقة غير ثقته؟[1].

فالشك لا يصح فى أمور واضحة للإنسان – وضوح الشمس فى رائعة النهار، كبعض مدركات الحس والعقل مما لا يرقى إليه ارتياب، وحواسنا تخدعنا أحيانا، لكنها هى التى تساعد العقل على تصحيح أخطائها بالتجربة والملاحظة، كذلك العقل يخدعنا أحيانا فى المسائل العويصة، فعلينا أن لا ننقاد له انقياد العميان، أما التشكيك فى ضروريات العقل وجلياته، فمعناه مضيعة للوقت، وتشتيت للذهن.

والعقل مع الحواس، رأس ما لنا الوحيد فى المعرفة فإذا أنكرنا الحواس، أنكرنا العقل نفسه، لأن المحسوس أساس المعقول وإذا أنكرنا العقل، أنكرنا بالفعل نفسه كل معرفة، بل كل حق لنا فى الشك، لأن

---

(١) نظرية المعرفة، ص ١١٦ .

الشك عملى عقلى . ولم يعدل الغزالى عن الشك فى ضروريات العقل، إلا لأن لا مجال للشك فيها، وكأنه أدرك ذلك فناقض نفسه بنفسه[١].

ومهما يكن من شىء، فإن تجربة الغزالى، تعد منهجا فلسفيا قويا، رادا على الشك المذهبى، إذ أنه ضمن للأوليات العقلية والحسية ضمانا جعلها موثوقا بها كأوائل للبرهان، ومن ثم فإن الحقيقة موجودة، والعلم بها ممكن، بل هو قائم على اليقين.

فالغزالى يؤكد وجود حقيقة، كما يؤكد إمكان الوصول إليها بشرط استعمال العقل بمعناه الصحيح،وبشرط سلوك المنهج والطريق الصحيح المؤدى إلى المعرفة الصادقة، مع الصبر والتأنى والتروى والسير بنظام فى التفكير وخصوصا وأن الخطوات التى قد لا يكون منها بد لإثبات القضايا الكبرى كثيرة، بحيث لا تستطيع معظم العقول أن تحيط بها، نظرا للنزعة النقدية عند الغزالى.

---

(١) الفلسفة العربية عبر التاريخ، ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

المبحث الرابع

الشك المنهجى عند ديكارت *

ثمة إجماع على اعتبار "رينيه ديكارت" أبا للفلسفة الحديثة ويرتكز هذا الرأى كما يقول "ريتشارد شاخب" على مبررات قوية ترجع إلى البرنامج الذى أعده، وأيضا إلى نوع المنهج الذى أتبعه فى محاولة تنفيذ هذا البرنامج، والذى تطلب منه الابتعاد عن المنهج السائد فى الفلسفة الوسيطة، ولقد ترك منهجه أثرا عظيما على الاتجاه اللاحق للفلسفة الحديثة(١).

وإذا كان " توما الأكوينى " كما يقول " هنرى توماس " قد نهج فى فلسفته على السير من العقيدة إلى العقل، وأن " بيكون" سار من العقل إلى العقيدة، فإن " ديكارت " لم يبدأ بحثه عن الحقيقة بواحدة من هاتين النقطتين، بل كانت نقطة البدء عنده هى الشك فى كل شىء، ومع ذلك أدى به الشك فى النهاية كما أدت العقيدة بالأكوينى، وكما أدى العقل" ببيكون" إلى معرفة الله تعالى(٢).

---

* ديكارت فيلسوف فرنسى، من اشهر فلاسفة القرن السابع عشر، ومن أوائل قادة الفكر فى العصر الحديث، كان رياضيا فى تفكيره، وجد فى الرياضة غاية اليقين، واكمل صور المعرفة، وأرجع ديكارت يقين الرياضة إلى منهجها الدقيق، فاستعان به لوضع أسس منهج جديد يصلح للبحث فى كل العلوم. ولد فى مارس عام ١٥٩٦م، فى بلدة لاهاى بمقاطعة " تورين" بفرنسا وتوفى فى فبراير ١٦٥٠م.

(١) رواد الفلسفة الحديثة، تأليف ريتشارد شاخب، ترجمة د / أحمد حمدى، ص ١٢، د: الهيئة المصرية ١٩٩٣ م.

(٢) أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، د / هنرى توماس، ترجمة مترى أمين ص ٢١٣، ط : دار النهضة العربية ١٩٦٤م.

وقد أبى ديكارت إلا أن يكون مجددا فى مختلف فروع الفلسفة وأن يقدم لرواد الفكر شيئا لم يسبق إليه، وأن يكون مذهبه الفلسفى من الشمول والإحاطة، بحيث يضم أطراف المعرفة كلها، ولا يركز اهتمامه بواحد منها دون الأخرى كما فعل غيره، ولهذا اهتم بالمجردات، كموضوع لفلسفة ما وراء الطبيعة، " الميتافيزيقا" كاهتمامه بعناصر الكون المادية كموضوع للفلسفة الطبيعية " الفيزيقا " وفوق هذا وذاك أعطى " المنهج " من العناية مثل ما أعطى لهذين القسمين، بل ربما اختصه بمزيد من العناية والاهتمام(١).

والمنهج عند "ديكارت" : " قواعد وثيقة، سهلة، تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق، ويبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة، بكل الأشياء التى تستطيع إدراكها، دون أن تضيع فى جهود غير نافعة، بل إنها تزيد ما للنفس من علم بالتدرج " ومن رأيه أن النفس قد أودعت فيها بذور الأفكار النافعة، وكلما اتجهنا إلى البساطة، واتخذنا النور الفطرى " الحدس" أداة للإدراك كان اكتشاف الحقيقة آمن وأيسر(٢).

وقد قال {ديكارت} " أننا لكى نفحص عن الحقيقة، ينبغى أن نشك فى كل ما يصادفنا من اشياء ولو مرة واحدة، لأننا كنا فى مرحلة الطفولة وقبل أن نبلغ طور الرجولة نحكم على الأمور التى تعرض لحواسنا تارة حكما خاطئا، وتارة حكما مصيبا، وعندما كنا لا نخشى

---

(١) تأملات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، د / محمد عبد الرحمن بيصار ص ٥١، ط: الانجلو، ١٩٧٢م.

(٢) مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، ترجمة محمود الخضيرى ص ١٤١، ط : الهيئة المصرية ١٩٨٥م.

استخدام العقل كان الكثير من القضايا المبتسرة يمنعنا من الاهتداء إلى معرفة الحقيقة، وينبهنا إلى أن ليس هناك دليل واضح بين على أننا نستطيع التخلص من هذه الأحكام، إذ لم نزاول الشك فى جميع الأمور، ولو مرة واحدة، فنشك فى كل شىء نجد فيه أقل شبهة للارتياب[١].

بدأ " ديكارت " يشك فى معلوماته الأولى التى تلقاها فى مدرسة "لافليش"، ثم أوغل فى الشك، حتى بلغ الذروة، وافترض له أسبابا لم تخطر ببال من سبقوه من الشكاك القدامى والمحدثين . وقد قال ديكارت عن شكه: " لم أكن مقلدا فيه للشكاك الذين يشكون ابتغاء للشك، وإنما قصدت إلى التثبت، وإلى تجنب الأرض الرخوة، والرمل المتحرك، لكى أجد الضوء "[٢] ولهذا كان شكه منهجيا، بمعنى أنه شك إرادى يفرضه المرء بإرادته على نفسه، ثم إنه شك مؤقت، حتى يصل إلى اليقين، لا شك دائم لأجل الشك .

وإذا كان {ديكارت} كما يقول الدكتور مدكور[٣] ويوسف كرم قد تأثر {بمونتنى} زعيم موجة الشك التى طغت على أوربا فى القرن السادس عشر، وهدمت الوحدة السياسة والروحية، وقضت على كثير من

---

(١) أسس الفلسفة، ص ٣١٦، نقلا عن مبادئ الفلسفة لديكارت .

(٢) مقال عن المنهج، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

(٣) دروس فى تاريخ الفلسفة، د / إبراهيم مدكور ويوسف كرم ص ١٢٦ ط : مدكور بمصر ١٩٥٤م وقارن : لمحات من الفلسفة الحديثة والمعاصرة د / محمد المهدى، ص ١٠٧ .

نفوذ العلم والدين، وزعزعت سلطان{أرسطو} والكنيسة إلا أن هناك فروقا واضحة بين شك { مونتنى} وشك تلميذه وخصمه فى آن واحد.

فبينما الأول يشك لمجرد الشك، إذا بالثانى يشك ليصل إلى اليقين . وبينما الأول يشك ليهدم الحقيقة، إذا بالثانى يشك ليخلص الذهن من أخطائه، ويعوده النظر العقلى الخالص، وبينما الأول لا يقف فى شكه عند حد، إذا بالثانى يسلم " بطبائع بسيطة"، و" أفكار جلية واضحة" لا يقوى الشك على هدمها، ولا يستطيع معارضتها .

وفى اختصار أصبح شك {مونتنى} الذى كان آلة هدامة لا ضابط لها، ولا غاية إلا الحيرة والتردد، فى يدى {ديكارت} منهجا عقليا، ومجهودا منظما يرمى إلى تميز الصواب من الخطأ وإحلال هدوء اليقين محل حيرة الشك، وغبطة الوصول إلى الحقيقة محل حسرة الإنكار.

فإذا أردنا أن نقرر شيئا محققا فى العلوم كما يقول ديكارت كان من الضرورى أن نشرع فى العمل من جديد، فنطرح كل ما دخل عقلنا من معارف، ونشك فى جميع طرق العلم وأساليبه، مثلنا مثل البناء يرفع الأنقاض، ويحفر الأرض، حتى يصل إلى الصخر الذى يقيم عليه بناءه، والأساس الذى نريد الوصول إليه هو " العقل مجردا خالصا " فإن العقل واحد فى جميع الناس، إذ أنه الشىء الوحيد الذى يجعلنا أناسى، ويميزنا عن العجماوات، فهو متحقق بتمامه فى كل إنسان، وما منشأ تباين الآراء

سوى تباين الطرق فى استخدام العقل[١].إذ العقل كما يقول ديكارت " { هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس "[٢]. وهذه عبارة رزينه، تعكس إيمان " ديكارت " بالعقل الإنسانى، أو بالإنسان بوجه عام. إذ الناس فى رأيه سواسية من ناحية قدرتهم أو إمكانيتهم على الفهم، ولكنهم ليسوا متساويين إلا فى هذه الإمكانية فحسب، وبالتالى فإنهم يختلفون من ناحية استخدامهم لهذه الإمكانية، بل إن فلسفته، كلها ليست إلا منهجا يعلمنا توضيح أفكارنا، وبحثا عن خير الوسائل التى تساعدنا على حسن إستخدام هذه الإمكانية العامة للفهم الذى رأى {ديكارت} أنها حظ مشاع بين الناس كلهم، فالناس سواسية حقا، ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بحسن التفكير، وحسن استخدامه لهذه الملكة التى حباه الله بها، وقدرة الواحد منا على توضيح أفكاره، وإصراره على أن لا يقبل فى عقله إلا ما كان واضحا متميزا .

وأول خطوة من خطوات منهج توضيح الأفكار هى " الشك" الذى يضمن لنا عدم وجود أفكار غامضة مشوهة فى عقولنا، وخير وسيلة لتحقيق هذا الهدف كما يقول ديكارت، هى أن نلقى بكل ما فى عقولنا فى الخارج، سواء فى ذلك الأفكار الغامضة، أو الأفكار التى قد تكون واضحة أو شبه واضحة، إذ أننا لو أبقينا على أفكار غير واضحة، داخل عقولنا، لتعذر علينا أن نفضل بين الواضح والغامض منها، فأولى بنا

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، د / يوسف كرم، ص ٦٦، ط ٦ : دار المعارف .

(٢) مقال عن المنهج، ص ١٦١ .

إذن أن نلقى بها جميعا - مؤقتا - خارج عقولنا، وقد قرب ديكارت هذه الطريقة بمثال سلة التفاح، إذ الذهن كما يقول : " اشبه بسقط مملؤ تفاح، فيه الجيد والردئ، وطريقة تنقيته، أن يفرغ التفاح جميعه، ويختبر الواحدة تلو الأخرى، ثم يطرح رديئة، ويحفظ جيدة"(١).

فالعقل عند ديكارت حافل بأفكار بعضها خاطئ، ولا سبيل إلى تطهير العقل من الأفكار الخاطئة إلا بإفراغه من جميع ما فيه، وهو لا يترك العقل فارغا، وإلا شابه غيره من الشكاك المذهبيين، فهو يعيد إليه ما يراه سليما من هذه الأفكار، ويطرح عنه الخاطئ منها فى ضوء منهجه العقلى المعروف، فالشك هو محك الصحيح والباطل من أفكارنا، وبه يتحرر العقل من أوهامه(٢).

شك " ديكارت " فى كل شيء تعلمناه من الحواس، وبعبارة أخرى، جميع ظنوننا عن وجود تلك الأشياء وطبائعها التى تعرفنا عليها عن طريق حواسنا، وأول سبب نكره لطرح جميع ظنوننا المستندة إلى شهادة حواسنا، هو أننا نعرف جميعا أن حواسنا تخدعنا أحيانا، فأحيانا نكتشف أن الأشياء مختلفة عما تراءت لنا أصلا، وأحيانا أخرى، نكتشف أن كل ما هنالك لا يزيد عن خيالات الأشياء، وفى هذا يقول ديكارت : " كل ما تلقيته حتى اليوم، وأمنت بأنه أصدق الأشياء وأوثقها، قد اكتسبته

---

(١) دروس فى تاريخ الفلسفة، د / ابراهيم مدكور ويوسف كرم ص ١٢٧، ط : مصر ١٩٥٤م.

(٢) أسس الفلسفة، ص ٣١٧.

من الحواس أو بواسطة الحواس، غير أنى جربت هذه الحواس فى بعض الأحيان فوجدتها خداعة، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعنا ولو مرة واحدة[١].

فإذا أثبتت حواسنا أنها غير موثوق بها فى احدى المناسبات فكيف يكون بمقدرونا أن نتيقن من صدقها فى مرات أخرى ؟ وما أشبه هذه الحالة بحالة شخص ما، اكتشفت أنه كذب عليك، فإذا أخبرك شيئا ما فى مرة أخرى، فإنك لن تكون واثقا بأن ما يذكره لك هو الصدق.

ويتساءل { ديكارت} لماذا لا تكون تصورتنا أثناء اليقظة، مثل الأحلام التى نراها فى النوم، إذ الإنسان ينام ويحلم ويستيقظ، فلا يدرى إذا كان ما يحسه الآن ليس إلا حلما بالنسبة ليقظة حقيقية إذ لا توجد لديه قرائن يقينية للتفرقة بوضوح بين اليقظة والنوم، فلا سبيل إلا أن انظر بعين الشك إلى جميع ما تلقيته عن طريق الحواس[٢].

وقد شك ديكارت أيضا فى استدلالات العقل، فهو يقول : " وأنا أشك فى استدلال العقل، لأن الناس يخطئون فى استدلالاتهم، ومنهم من يخطئ فى أبسط موضوعات الهندسة، فلعلى أخطئ دائما فى الاستدلال[٣].

والشىء الذى يجب أن نعيه هنا أن الشك فى هذه الحالات ليس

---

(١) التأملات فى الفلسفة الأولى، ديكارت، ترجمة، د/عثمان أمين ص ٧٢ – ٧٣ ط : الانجلو ١٩٨٠م.

(٢) السابق، ص ٦٦ .

(٣) مقال عن المنهج، ص ٢١٣، ١٢٢ .

شكا مذهبيا، بل هو حيلة منهجية، حيث أن ديكارت كان عالما رياضيا وطبيعيا، يعرف قيمة الحواس والخيال والعقل، والشك فى هذه الأشياء ليس معناه أنها لا تصلح أن تكون وسيلة للمعرفة، بل معناه أننا إذا أردنا أن نستخدم حواسنا وعقلنا، فيجب أن يكون استخدامنا سليما يجنبا الوقوع فى الزلل، وعدم الوصول إلى اليقين .

ولم يقف "ديكارت" عند شكه فى الحس والعقل، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث افترض أن شيطانا خبيثا ماكرا مضللا قويا يستعين بكل ما فى وسعه من الحيل على تضليله، وقال : إن السماء والهواء والأرض والألوان، والأشكال والأصوات، وسائر الأشياء الخارجية لا تكون إذن إلا أوهاما وأحلاما، استخدمها فى سبيل تضليلى، ... وسأوطن ذهنى على مواجهة جميع الحيل التى يعمد إليها ذلك المخادع الكبير، حتى لا يستطيع مهما يكن من بأسه ومكره، أن يقهرنى على شيء أبدا[1].

وافتراض ديكارت لشيطانه الماكر المخادع مصدرا لكل ما يرى، أو يحس من وجودات الأشياء المادية، يمثل البعد الميتافيزيقى للشك عنده، فخداع الحواس والخيال والعقل، هو خداع الطبيعة والنفس، وهو يريد أن يتجاوز هذا الخداع إلى خداع ميتافيزيقى، يتمثل فيما يسميه " بالشيطان الماكر" هذا الشيطان الماكر يتصف بالخبث والخداع، كما

---

(١) التأملات فى الفلسفة الأولى، ص ٨٠.

يتصف بالقدرة، هذا الشيطان القادر فكرة ميتافيزيقية على الخداع، يستطيع أن يعبث بالحقائق العقلية، الأزلية الأبدية، كذلك فهو قادر على جعل الصدق كذبا والكذب صدقا "[١].

وإذا كان الإنسان يستطيع أن يتجنب خداع الطبيعة والنفس بواسطة المنهج القويم الذى ينشده ديكارت، فإنه لا يستطيع أن يواجه الشيطان الماكر، لذلك كانت فكرة الشيطان الماكر فكرة ميتافيزيقية، انطلق منها ديكارت لإثبات وجود الله تعالى . يقول ديكارت : " فمن المستطاع برهنة تعذر الدفاع عن افتراض وجود هذا الشيطان الخبيث، واثبات أن هناك إلها، والإله خير، ومن ثم فإنه لا يتصف بالخداع، ولما كان ليس مخادعا كما يبين من تزويده لنا بملكة تكوين الأفكار الواضحة المتمايزة، لذا فمن الحقيقى أن ما ندركه بوضوح وتمايز، إنما هو أشياء حقيقية[٢].

وقد أتخذ { ديكارت } من الشك نفسه - كعملية فكرية - أساسا لوضع اللبنة الأولى، فى القضايا اليقينية، وهى وجود الذات، لأنها تفكر يقول ديكارت : " إنه حين يشك يفكر، ولا يمكن أن يقوم تفكير وشك بغير علة، وهى ذات تفكر، وكلما أسرفنا فى الشك والتفكير، هدانا هذا الاسراف إلى الاعتراف بوجود ذات تقوم بالشك والتفكير، ومن هنا

---

(١) الفلسفة نشأتها وتطورها، د / نازلى إسماعيل، ص ١٢٨، ط : القاهرة ١٩٨٣م.

(٢) التأملات فى الفلسفة الأولى، ص ١٧٩ . وقارن : رواد الفلسفة ص ٢٠ . مقال عن المنهج، ص ٢١٩.

انتهى إلى المبدأ اليقينى الأول الذى تحرى أن يقيم على أساسه كل فلسفة وهو " أنا أفكر، إذن فأنا موجود "[١].

تلك حقيقة مؤكدة واضحة، متميزة خرجت لى من ذات الفكر، لها ميزة نادرة هى، أنى أدرك فيها الوجود والفكر متحدين اتحادا لا ينفصم، ومهما يفعل الروح الخبيث فلن يستطيع أن يخدعنى فيها، لأنه لا يستطيع أن يخدعنى إلا أن يدعنى أفكر[٢].

" ولما انتبهت إلى أن هذه الحقيقة : " أنا أفكر إذن فأنا موجود " كانت من الثبات والوثاقة واليقين، بحيث لا يستطيع اللاأدريون زعزعتها، بكل ما فى فروضهم من شطط بالغ، حكمت أنى لا استطيع مطمئنا أن آخذها مبدأ أول للفلسفة التى اتحراها"[٣].

وهكذا تتضح لديكارت الحقيقة الميتافيزيقية الأولى، واليقين الأول فى الفلسفة الأولى، وهو يقين الفكر، أو الذات المفكرة، " أنا أفكر، وأنا واثق من أننى أفكر، وحتى لو شككت فى أننى أفكر فمثل هذا الشك يقتضى أن أفكر أيضا".

فحين أقول إنى شىء مفكر، أقصد " أنى شىء يشك ويثبت وينفى، ويعلم قليلا من الأشياء ويجهل الكثير، ويحب ويبغض ويريد ويأبى،

---

(١) التأملات فى الفلسفة الأولى، ص ٩٥ – ١٠٠ . وقارن : مقال عن المنهج، ص ٢١٤.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ٦٧، أ/يوسف كرم، ط ٦ : دار المعارف .

(٣) مقال عن المنهج، ص ٢١٤ .

ويتخيل أيضا ويحس، والفكر صادر عن النفس، أو هو النفس، أو الروح، خالص ثابت عندى مهما أشك فى وجود جسمى وسائر الأجسام[١].

وها هو الشك ينقلب إلى يقين، يقين بأننى أفكر، وبوجودى كذات مفكرة، إن ديكارت يكتشف ذاته اكتشافا ميتافيزيقيا بواسطة الفكر، والفكر فى مذهبه العقلى هو " حقيقة الوجود الإنسانى ".

وبذلك وضع ديكارت أساس اليقين الأول، وهو يقين الفكر وهو ما عبر عنه بعبارته الشهيرة : " أنا أفكر إذا أنا موجود " والتى تعرف عادة باسم " الكوجيتو " الديكارتى . " وهو مبدأ يقينى بديهى توصل إليه بالحدس* وبه أثبت الإنية بالفكر، ومن هذا انتقل إلى اثبات وجود الله وصفاته فالله كامل مطلق الكمال، منزه عن كل نقص أو خداع، وهو الذى وضع العقل فينا، فهو الضامن لصحة التفكير متى كان موضوع التفكير واضحا متميزا، ومن هنا أباح ديكارت لنفسه – بعد شكه – أن يفكر فى النفس، ويعتبر ماهيتها فكرا، وفى الجسم ويعتبر ماهيته امتدادا، وانتهى ديكارت من هذا كله إلى "اليقين " بوجود العالم الخارجى، وموجوداته المادية[٢].

---

(١) التأملات فى الفلسفة الأولى، ص ١٣١ .

* الحدس عند ديكارت : هو الرؤية العقلية المباشرة للحقيقة، وهو نظرة عقلية، بلغت من الوضوح والتمييز العقلى ما يزول معها كل شك، وعملية الحدس العقلى لا تتعلق بالحواس أو بالخيال، بل بالذهن الصافى اليقظ، الذى يستطيع وحده أن يصل إلى الفكرة السليمة البسيطة الواضحة، فهو أشبه ما يكون "بغريزة عقلية تصل عن طريقها إلى المعارف البسيطة البديهية مثل :المثلث شكل محدود بثلاثة أضلاع، الشيئان المساويان لثالث متساويان ٠٠ الخ.

(٢) أسس الفلسفة، ص ٣٢٢ – ٣٢٢ .

فديكارت قد وصل إلى حقيقة وجوده ابتداء من الفكر، بعد أن كان قد وصل إلى حقيقة التفكير نفسه ابتداء من الشك، بحيث نستطيع أن نلخص فكر ديكارت على هذا النحو : " أنا أشك، فأنا إذن أفكر . وأنا أفكر فأنا إذن موجود".

فالشك الديكارتى إذن، حيلة منهجية، ولهذا يعتبر شكا مؤقتا لا شكا هادما، ولكن ديكارت لا ينتقل من الشك إلى اليقين، إلا بسند إلهى يحميه من الشيطان الماكر الخبيث، وهنا نجد العناية الإلهية تتدخل لضمان الصدق فيما يعرض للعقل من حقائق، فلا يكون الجلاء والوضوح معيارا وحيدا للحقيقة، أو بمعنى آخر، لن يكون الجلاء والوضوح من الخصائص الذاتية للأفكار، كما ظن ديكارت بل إن الله - تعالى - هو الذى يؤسس صدقها .

يقول ديكارت : على أن اطمئنانى إلى الوضوح ما يزال مفتقرا إلى التثبيت، فقد يكون خالقى صنعنى بحيث أخطئ فى كل ما يبدو لى بينا، أو قد يكون سمح للروح الخبيث أن يخدعنى على الدوام.

الحق أنه بدون معرفة وجود الله - تعالى - وصدقه، فلست أرى أن باستطاعتى التحقق من شىء ألبتة . أعود إذن إلى فكرة الله التى كانت سببا من أسباب الشك، فأجد أنها فكرة موجود كامل والكامل صادق لا يخدع، إذ أن الخداع نقص لا يتفق مع الكمال وعلى ذلك فأنا واثق بأن الله صنع عقلى كفئا لإدراك الحق، وما علىّ إلا أن أتبين الأفكار الواضحة، وصدق الله ضامن لوضوحها[1].

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ٦٧ . وقارن : رواد الفلسفة الحديثة ص ٤١ - ٤٢.

وبعد أن اثبت " ديكارت "، أنه مفكر، ومن الفكر أثبت وجود ذاته، أثبت بعد ذلك من وجود ذاته وجود الله تعالى، فهو يسير من شك إلى يقين، ملتزما فى ذلك كله نسقا منطقيا، وترتيبا ذهنيا منظما.

يقول ديكارت : " لا بد أن ابحث مسألة وجود الله، بمجرد أن تسنح الفرصة لذلك، فإذا اكتشفت أن هناك إلها، سيتعين علىّ أن أبحث هل يحتمل أن يكون مخادعا، فإذا لم أهتد إلى معرفة هاتين الحقيقتين - يعنى وجود الله، وأنه ليس مخادعا - فإننى لن أرى إمكان تيقنى من أى شىء، يعنى أى شىء آخر خلاف أننى موجود، وأننى شىء مفكر[١].

ذلك أن المعرفة التى غرسها الله فى الإنسان، عند خلقه هى الضامنة لوضوح أفكاره وتميزها، لأن الله صادق لا يكذب، ولا يخدع، ويحول دون أن يتسلط روح خبيث يضل الإنسان فى أهم قضية فى حياته، وهى إمكان معرفته . ولذلك فإن المعرفة تتأسس فى إمكانها ويقينيتها على معرفة الإنسان لذاته، ومعرفته لله، " فمن عرف ذاته، عرف الله كسبب سابق وخالق لذاته، وكسبب أعلى ضامن لصدق معرفته[٢].

وهكذا، يكون " ديكارت "، قد انتقل من اليقين الأول، إلى اليقين الثانى، بصورة مباشرة . فالأنا الذى يشك هو كائن ناقص والنقص لا يُعرف إلا فى مقابل الكمال، لذلك لم يقف ديكارت عند حقيقة وجود

---

(١) مقال عن المنهج، ص ٢٢١ . وقارن : رواد الفلسفة الحديثة. وأيضا : لمحات من الفلسفة الحديثة والمعاصرة، د / محمد المهدى ص ١١٨، ط : النور ٢٠٠١ م.

(٢) المنهج الفلسفى ص ١٢١ – ١٢٢ .

الذات، بل تعداها إلى حقيقة اثبات وجود الله تعالى . يقول ديكارت : " نشأت فكرتى عن الله عندما كان عقلى الناقص يبحث عن شىء أكثر كمالا من نفسى، وتحققت أن عقلى ناقص لما كان يخالجنى من شكوك، فالشك يتضمن نقصا فى الكمال عن المعرفة". وبعد أن تأمل هذه الفكرة لمدة طويلة، يحدثنا ديكارت قائلا : " قد دفعنى هذا الى التفكير فى شىء أكثر كمالا من نفسى وتحققت بوضوح أن هذه الفكرة لا بد أن تكون قد جاءتنى من " كائن ذى طبيعة "، هو فى الحقيقة أكثر كمالا منى " . وخلص إلى أن هذه "الطبيعة السامية " لا بد أن تتحلى بكل صنوف الكمال التى يمكن للعقل البشرى أن يكّون عنها أية فكرة، وإذا ما أجملنا كل صفات الكمال هذه فى كلمة واحدة، كانت هذه الكلمة هى "الله"[١].

ومعرفة " ديكارت "، لوجود الله - تعالى - تمثل مبدأ آخر، وقاعدة جديدة ينطلق منها لاكتشاف العالم الخارجى، وتحصيل معرفته به، يقول ديكارت : " يبدو لى أن أمامى الآن طريقا سينقلنى من تأمل الإله الحق، إلى معرفة باقى الأشياء فى الكون"[٢].

فمنذ اللحظة الأولى، لادراكه لحقيقة الذات الإلهية، ومعرفته لصفاتها، معرفة يقينية، أصبح من الصعب أن يشك فى وجود الأشياء المادية، ولا فى وجود الأشياء العقلية المتصلة بذاته تعالى. يقول ديكارت: " يصح لى أن أقول إنى قبل أن أعرف الله، ما كان بوسعى أن

---

(١) أعلام الفلاسفة، ص ٢١٩ .

(٢) التأملات، ص ٢١٠ .

أعرف شيئا آخر معرفة كاملة، والآن وقد عرفته سبحانه قد تيسر لـــى السبيل إلى اكتساب معرفة كاملة لأشياء كثيرة ولا تقتصر هذه المعرفـــة على الأمور المتصلة بالله تعالى، والأمور العقلية الأخرى، بل تتنـــاول أيضا، الأمور المختصة بالطبيعة الجسمانية"[١].

تعقيب وتقويم لمنهج ديكارت الشكى:

اتخذت الفلسفة الديكارتية الشك منهجا صريحا، لا بديل له لاقامـة الفلسفة، وأمعنت فى الشك إلى أبعد حد، فبينت بهذا أن الفلسفة الحقة غير ممكنه بدون شك واصطناع للشك والحاح فيه .

لقد وجد ديكارت نفسه أمام تراث علمى وفلســـفى، ابـــلاه القـــدم والتقليد، ضعيف الوثاقة إذا قيس بما يبدو فى الرياضة من دقة، فلم يقتنع ديكارت بتلك المعارف فتشكك فيها، ثم اصطنع الشك عامدا فامتد بـــه إلى كل ما يحيط به، فشك فى حواسه، وفى عقله، وفى العالم الخـارجى، ثم أمعن فى الشك إلى حد افتراضه أن هناك شيطانا ماكرا يعبـــث بـــه، ولكنه لم يستسلم إلى هذا الشك الملح، لأنه لمح فيه بصيصا مـــن يقيـــن يخرجه منه، لأنه كلما شك فكر فوجد بذلك فى شكه متكـــأ لأول يقيـــن عنده، هو أنه ما دام يشك فهو يفكر وما دام يفكر فهو موجود، فقـــال إن اليقين الأول " أنا أفكر إذن أنا موجود".

ومن هذا اليقين الأول الذى تكشف عنه الشك الملح، تتسلسل حقائق

---

(١) السابق، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

يقينية أخرى كما تتسلسل حدود متوالية هندسية أو حسابية ابتداء من نقطة البدء المعطاة كحد ونسبة .

فقد بين ديكارت أن طبيعة الإنسان الحقيقية هى الفكر، وأن الوجود ملازم أصالة، أو بداءة للفكر - النفس -، وتدرج من هذا اليقين بالفكر أو بالنفس، إلى إثبات وجود الله تعالى، ثم عن طريقه وعن طريق الأفكار الواضحة المتميزة التى أودعها الله فى النفس بالفطرة، اثبت أخيرا وجود العالم الخارجى المادى .

فالشك وسيلة من وسائل تطهير الذهن وتصفيته . وقد قالوا: إنه مبدأ الحكمة، ومدرسة الحقيقة، وما أحوج الإنسان فى رأى ديكارت، أن ينزع عن نفسه - كما صنع هو - ولو مرة فى حياته كل ما اكتسب من آراء، ويلغى كل ما اعتنق من أفكار، ثم يعرض ذلك كله على بساط البحث، ويختبره بمخبار الشك، ويضعه تحت تصرف العقل وحكمه .

والشك المنهجى الديكارتى كما يقول الدكتور هويدى، هو النموذج الصحيح للشك الفلسفى بمعنى الكلمة، وهو يمثل خطوة أساسية من خطوات الموقف الفلسفى[1]. لأنه لا يرمى إلى هدم إمكانية المعرفة، كما هو الحال فى الشك المذهبى، بل هو يرمى على العكس من ذلك تماما، إلى الوصول إلى المعرفة اليقينية وإقامتها على أسس سليمة، فهناك إذن فارق كبير بين الفيلسوف الشاك، والفيلسوف الذى يستخدم الشك كمنهج .

---

(١) مقدمة فى الفلسفة العامة، ص ١١٩.

ومن أجل ذلك فإن الشك المنهجى أفضل بكثير من الشك المذهبى أو المطلق، بل أنه أفضل من النزعة اليقينية الدوجماطيقية لأن هذه النزعة تؤدى إلى عقم الفكر، وعدم تفتحه، فى حين يفتح الشك المنهجى أمام التفكير آفاقا كثيرة متعددة .

وقد علق الأستاذ " يوسف كرم "، على الشك الديكارتى، ونفى عنه كونه شكاً منهجياً، كما يقول ديكارت واعتبره شكاً،حقيقياً كلياً، وفى هذا يقول : " أما الشك فلسنا نوافق على أنه فرض منهجى، إذ لكى يكون الشك كذلك، يجب أن يكون صوريا جزئيا، و " ديكارت " يشك حقا فى كل شىء، فيصبح شكه حقيقيا بالضرورة، إنه يصرح بأن " ليس هناك شىء إلا ويستطيع أن يشك فيه على نحو ما "، .. فلو أنه قصر الشك على الأمور غير البينة المفتقرة إلى برهان، واستثنى المبادئ الأولية البينة بذاتها، لأمكنه الاستناد على هذه المبادئ للخروج إلى اليقين، ولكنه يشك فى العقل ذاته، فشكه كلى حقيقى، يمتنع الخروج منه[١].

ويذهب بعض المفكرين، إلى أن الشك الديكارتى ليس كليا مثل شك الشكاك، وذلك لسببين : الأول : أن الفيلسوف يقصد إلى تبرير اليقين بعد المضى فى الشك إلى أقصى حدوده . والثانى : أنه يستثنى بالفعل العقائد الدينية، والقواعد الأخلاقية، والتقاليد الاجتماعية[٢].

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٦٧ – ٦٨ .

(٢) السابق، ص ٦٨ . وقارن : ديكارت، للدكتور عثمان أمين، ص ١٢١ – ١٢٢، ط : الانجلو ١٩٦٩م.

ويرد " يوسف كرم " على هذا الرأى فيقول : " إن إرادة تبرير اليقين ترجع إلى نية الفيلسوف، وليست النية بمغيرة شيئا من الموضوع . واستثناء العقائد والأخلاق والتقاليد، لا يعنى أن الفيلسوف موقن بها ذلك اليقين الذى ينشده، فإن العقائد أسرار تفوق العقل، والأخلاق والتقاليد من الضرورى التزامها قبل الشك وأثناءه، لأن أفعال الحياة غالبا ما لا تحتمل الارجاء" كما يقول ديكارت نفسه . وإنه " ليس من الفطنة التردد فى العمل، بينما يضطرنا العقل إلى التردد فى الأحكام"[١].

كما أن افتراض ديكارت للشيطان الماكر، واحتمال خداعة له يزيد من اتهامه بالشك المطلق . إذ أن مثل هذا الافتراض لا يمكن الوقوف عنده، لأنه لو كان صحيحا لما أمكن إزالته إطلاقا، إذ لو كان متناولا جميع تفكيراتنا لبطلت الاستدلالات التى يراد بها إثبات إله صادق، أو عدم الشيطان الماكر . كما أن البعض عاب على ديكارت تماديه فى سبيل هذا الشك، لأنه قد يؤدى إلى أن يشك فى وجود الله، وقالوا : إن هذا الافتراض يقضى على الفيلسوف بعدم الخروج من حظيرة الشك مطلقا[٢].

وقد بين ديكارت مراده بنفسه، ونفى عن نفسه تهمة الشك المطلق، فهو يقول فى رده على من اتهمه بذلك، بأن ما دعاه إلى هذا الشك إلا إعداد أذهان القراء، للنظر فى الأمور الذهنية ولتمييزها عن الأشياء

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٦٨ .

(٢) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص ١٢١ .

البدنية[١]. وهو شك مؤقت، وليس غاية فى ذاته مثل شك الارتيابيين.

وقد علق الدكتور{هويدى} على الشك الديكارتى فقال: من الواضح أننا أصبحنا هنا أمام شك ميتافيزيقى، موضوعه أسس الوجود ومبادئه، ولهذا السبب نفسه فإن الشك هنا فى التأملات لم يعد شكا انتقائيا - أى اختياريا - يرفض المحسوس ليقبل الفكرة الذهنية ويطمئن إليها كما كان الحال سابقا، بل إننا نجده يمر بالمحسوس وبالمعقول معا، لا باعتبار أنه يمر من الغامض إلى الواضح، بل باعتبار أنه ينتقل من وجود إلى آخر، ديكارت هنا يقوم بعملية رد الوجود الخارجى، لكن عملية الرد هذه لا يقوم بها ديكارت ليصل إلى القوانين العلمية كما يفعل العالم، أو كما كان من الممكن أن يفعله ديكارت لو كان مجرد عالم طبيعى رياضى، وهو لا يقوم بها ليصل إلى عالم الماهيات كما فعل{ هوسرل}، بل ليصل إلى الوجود الأول اللامتناهى[٢].

ويستطرد الدكتور { هويدى}، وهو بصدد تعليقه على الشك الديكارتى قائلا : أننا لكى نفهم الاساس الذى قام عليه الشك الديكارتى، علينا أن نربطه بالإرادة لا بالعقل، فهو شك إرادى وليس عقليا .

ومن هنا فإن من الخطأ أن نجرى وراء ما يقال عادة عن هذا الشك، للتفرقة بينه وبين شك الشكاك من أنه شك منهجى هدفه، ليس

---

(١) ديكارت، د / عثمان أمين، ص ١٢٥.

(٢) دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، د / يحى هويدى ص ٣٣ - ٣٤ . ط : دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٧م.

تقويض العلم وهدمه، بل بناءه وتشييده . فالشاك الـذى يمـارس شـكا منهجيا من هذا الطراز يعلم نتائجه مقدما، وهو يمارسه باعتباره ضربـا من الحيلة فقط، لكن ديكارت لم يمارس شكه وهو يعلم مقدما النتائج التى سيصل إليها باتباعه، بل مارسه وهو يخوض تجربة وجودية من الطراز الأول، تجربة قائمة على القلق والحيرة، كان فى أثنائها يسبح فى بحـر من الظلمات، وقد بلغ هذا الشك الإرادى منتهاه عندما افترض ديكـارت أن هناك شيطانا ماكرا، يحلو له أن يقلب له الحق باطلا والباطل حقا[١].

وكأنى أرى الدكتور {هويدى} هنا يناقض نفسه بنفسه، حيث ينفـى فى مؤلفه هذا، أن يكون شك {ديكارت} شكا منهجيا، ويثبت نقيض ذلـك فى مؤلف آخر، حيث يصنف الشك الديكارتى فى قائمة الشك المنـهجى، بل يشيد به قائلا : " وجاء بعده - يعنى بيكون - ديكارت الذى كان لـه الفضل فى إرساء الشك المنهجى على اسس علمية سليمة"[٢]. وقد أنـهى كلامه عن الشك الديكارتى فى هذا المؤلف قائلا : " هذا الشك الديكارتى هو النموذج الصحيح للشك الفلسفى بمعنى الكلمة"[٣].

والحقيقة أن شك {ديكارت} كان شكا منهجيا علميا، لـم يعـد أن يكون سوى محاولة منظمة للوصول إلى اليقين العقلى، " وليس تجربـة من تجارب الوجود، ومثل ذلك الشك أدنى أن يكون نشاطا روحيا مرتبا،

---

(١) السابق، ص ٣٤ .

(٢) مقدمة فى الفلسفة العامة، ص ١١٣ .

(٣) السابق، ص ١١٦ .

وقوة دافعة للفكر، من أن يكون ميلا إلى الانحدار فى هوة الشك المطلق، والتحلل من ربقة الدين "(١).

ومهما يكن من شيء، فإن {ديكارت} فى بحثه عن اليقين، قد نحى منحى الإمام {الغزالى} حيث اتخذ الشك المنهجى وسيلة موصلة إلى اليقين، إذ هو وسيلة من وسائل تطهير الذهن وتصفيته، لا يرمى إلى هدم إمكانية المعرفة، كما هو الحال فى الشك المذهبى بل هو يرمى على العكس من ذلك تماما إلى الوصول إلى المعرفة اليقينية، وأقامتها على أسس سليمة.

---

(١) نظرية المعرفة، ص ١٢١ .

المبحث الخامس

أوجه الاتفاق والاختلاف بين الغزالى وديكارت

بالرغم من البعد الزمنى الكبير بين الغزالى وديكارت وبالرغم من تنوع الوسط الثقافى والحضارى والروحى الذى عاش فيه كل منهما، إذ وجد {الغزالى} فى عصر تسيطر عليه العقيدة الإسلامية ووجد {ديكارت} فى عصر تسيطر عليه المسيحية، إلا أن هنالك من السمات المتشابهة بين عصرى كل منهما إلى حد كبير . فلقد كان عصر " الغزالى " يعج برجال الفكر المختلفين فى المذاهب والمتصارعين بالنقاش حول مسائل حساسة ومعقدة، ولذلك كثرت الفرق والمذاهب، من فقهاء ومتصوفة، ومتكلمين، وفلاسفة وزنادقة، فكان الباعث الأساسى للغزالى فى هجومه على كل هذه الفرق - ما عدا الصوفية - وتشكيكه فى كل أقوالهم، هو مشكلة فلسفية أساسية من الدرجة الأولى فى الأهمية، وهى "اليقين الذى لا يقبل الشك فيما وراء كل الحقائق التى قدمتها إليه علوم عصره[١].

وكذلك كان عصر {ديكارت} وهو مطلع عصر النهضة الأوربية، يعج أيضا بالمفكرين المختلفين فى الرأى، والمجتهدين فى النقاش حول المسائل المطروحة على ساحة البحث، وقد ظهر عجزهم جميعا عن تقديم الأدلة المقنعة، سواء من الفلاسفة، أو العلماء، أو رجال الدين،

---

(١) انظر صـ ٢٤٨- ٢٥٠ من هذا البحث

ولهذا اتجه {ديكارت} إلى البحث عن اليقين الذى تنبعث عنه كل معرفة يطمئن إليها المرء، ويجد معها حاكمها الشاهد بأنها صواب، منزهة عن أى احتمال للشك[١].

ولعلنا هنا لا نستطيع أن نغمض أعيننا عن ابراز أوجه الشبه والتقارب والالتقاء، بين شك الإمام الغزالى، والشك الديكارتى، فى كونه شكا إراديا ومنهجيا،إذ أن الباعث عليه هو حب الحقيقة وحده، وإرادة الوصول إلى العلم اليقينى، وليس مجرد شك لذاته أى لأجل البلبلة الفكرية، واحداث الاضطراب العقلى دون ما هدف أو غاية . ولعلنا هنا نتذكر قول الغزالى حول قيمة الشك كوسيلة للوصول إلى اليقين، " من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال"[٢]. وقول ديكارت :"فإننى تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما، فى شىء ما، بحكم التقليد أو العادة[٣]. فدعوة الغزالى وديكارت، هذه إلى التحرر من التبعية العقلية، والجمود الفكرى، دعوة حية متجددة على مر الزمان . فالشك فى جميع المعارف التى يتلقاها الإنسان عن طريق التقليد أمر ضرورى فى أثناء التطور العقلى، وذلك لأن الشك هو الذى يجعل الوصول إلى الحقيقة ممكنا.

لقد سجل الغزالى بشكه، ظاهرة فكرية، قدرها فيه وأكبره من

---

(١) انظر : لمحات من الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص ٧٧ – ٧٨ .

(٢) ميزان العمل، ص ١٣٧ ط : الجندى .

(٣) مقال عن المنهج، ص ١١٩.

أجلها رجال الفلسفة . لقد حاول الغزالى بهذه الظاهرة أن يؤسس دعائم قوية، يقيم عليها بناء المعرفة سليما قويا . وبهذا يكون الغزالى قد سبق مؤسس الفلسفة الحديثة {ديكارت}، فى رسم طريق قويم للمعرفة، وفى تحديد مكانة العقل، والكشف عن جوانب القصور فيه(١).

إن البناء الأساسى لظاهرة الشك عند الغزالى وديكارت، يكاد يكون واحدا، فنحن نتبين عند كل منهما مراتب مختلفة للشك وهى: الشك فى المعارف الحسية، ثم الشك فى المعارف العقلية الأولية ثم فى النهاية فى الواقع كله، وما يتعلق بذلك من حجة المنام.

فقد رجع كل منهما، إلى نفسه يمتحن قواها على الإرادة وقدرتها على المعرفة اليقينية، فبدأ بتكذيب الحواس، لأنها ترينا الأشياء على غير حقيقتها، وضرب كل منهما الأمثلة المتقاربة مثل كون الحواس ترينا الأشياء البعيدة أصغر من حقيقتها، أو ترينا الظل ساكنا مع أنه متحرك، كما عمد كل منهما إلى تجريح العقل وقدرته على تحصيل المعرفة اليقينية(٢).

إلا أن الغزالى قطع بأن العقل أداة عاجزة، عن ايجاد حل لمحنة الشك، وهو إدراك اليقين، وكانت كل هجماته على الفلاسفة فى كتابه " التهافت"، تدور حول إسقاط العقل عن عرشه فى إدراك اليقين .

---

(١) تهافت الفلاسفة ؛ للإمام الغزالى، مقدمة، د / سليمان دنيا، ص ٣٦، ٤١، ط ٧ : دار المعارف .

(٢) انظر : ص ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٧٧ من هذا البحث

والمعرفة التى توصل إليها من شكه، هى المعرفة الحدسية وهى معرفة لا شعورية، عبارة عن نور قذفه الله تعالى فى صدره فكأنه أوتى اليقين عندما عجز العقل عن الوصول إلى ما يهدف إليه.

والغزالى وإن كان قد اعطى اليقين من النور الإلهى الذى قذف فى قلبه، فإننا لا نشك فى أنه دخل مع المذاهب بعقله ليناقش قدرة العقل على البحث، ومدى قدرته على اليقين، إذ النور الإلهى كان شافيا لثورته الشكية[١].

أما ديكارت فإنه يُقر بعجز العقل عجزا جزئيا، فيقول : " اننا نعرف أن العقل قد يخطئ أحيانا فى بعض الحقائق الهندسية، ولذلك فربما تكون المعلومات التى يرشدنا إليها موضعا للتشكك من أجل التثبت من صحتها بواسطة العقل نفسه[٢]. إذ العقل عند ديكارت له قوتان : حدس، واستنباط، الأولى صادقة، دائما لبساطتها، أما الثانية فتحتمل الصواب والخطأ، لأنها معقدة، وتحدث على مراحل ولذلك فهى تحتاج إلى تحليل وتركيب، ومراجعة واحصاء، من أجل الوثوق بها[٣].

وبعد أن شك كل واحد من الفيلسوفين، فى معارف عصره وفى معطيات حواسه وعقله، ورأى أن المحسوسات تكذب العقل والعقل

---

(١) انظر : ص ٢٦٠ – ٢٦١ من هذا البحث

(٢) مقال عن المنهج، ص ١٢٢ .

(٣) المنهاج القويم فى منطق العلم الحديث ومناهج البحث، د / محمد المهدى، ص ٢٩٥ – ٢٩٧، ط: المطبعة العربية الحديثة، ٢٠٠١م.

يكذب الحس، فبماذا إذن يؤمن، وعلى أى مصدر للمعرفة يعتمد ؟ يقول الإمام الغزالى : أنه بعد العلة التى أصابته من الشك ومن العزلة والمجاهدة والسلوك نحو الصفاء الروحى، شفيت علته وخرج من حال الشك إلى حال اليقين، " ولم يكن ذلك بنظم دليل أو ترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة[١].

فحاكم اليقين إذن عند الغزالى، منبعه خارج الذات، يهبط إليها من الله فى صورة نور يقذف فى الصدر، وبهذا النور الآتى إليه من خارج الذات، عاد إلى نفسه فآمن بها بعد إنكار، وآمن بالعلم الصحيح بعد ارتياب . وأما ديكارت، فإنه بعد هذا الشك خرج من ظلماته إلى نور اليقين، بدليل نابع من ذاته نفسها، ألا وهو {الكوجيتو}، أى " أنا أفكر فأنا إذن موجود "، قضية بسيطة فطالما أنه يشك فهو يفكر، لأن الشك من عمليات التفكير، وبما أنه يفكر فإن هناك ذاتا تفكر . ومن هذه الحقيقة اليقينية الواضحة، صعد إلى إثبات وجود الله، لأن هذه الذات تشع بالنقص، وهذا الشعور بالنقص هو نفسه دليل على أن لديها فكرة عن الكمال، وهى لا يمكن أن تكون مصدر هذه الفكرة، لأنها ناقصة، إذن فهناك موجود كامل هو الله، أودع فى النفس فكرة الكمال رمزا لوجوده[٢].

---

(١) المنقذ، ص ٧ .

(٢) مقال عن المنهج، ص ٢٢١.

فالغزالى هنا لا يعرف ذاته، ولا يدرك اليقين إلا بنور يقذفه الله فى صدره، ولولاه لما اهتدى أبدا، أما ديكارت فإنه يبدأ من الذات، لاثبات وجود الله بطريقة عقلية، اشبه ما تكون ببراهين فيثاغورث وأقليدس فى الرياضيات، ولم يكن ذلك غريبا، فقد نظر الغزالى إلى العقل على أنه أداة قاصرة، ومعارفة تعتبر من الدرجة الثانية، إذ قيست بالمعرفة الصوفية التى ترد عن طريق الإلهام، أما ديكارت فإنه يعتبر العقل هو كل شىء فى تكوين المعرفة اليقينية.

فالفرق بين الغزالى وديكارت فى كيفية الخروج من الشك، أن ديكارت خرج من الشك بطريقة استدلالية فى حين أن الغزالى خرج منه بمعونة آلهية .

فالثورة الشكية العارمة، التى شنها كل من الغزالى وديكارت على المعارف الحسية والعقلية، كانت تحسسا لأكثر الطرق توصلا إلى اليقين. والغزالى وديكارت، يرفضان بشكيها فى الثابت المقرر التقليد، اما بعد امتحان ذلك كله بالعقل والوضوح عند ديكارت وبالبصيرة الكاشفة عند الغزالى[1].

وكلا الفيلسوفين يبرر جواز الخطأ على الإنسان، بدليل الرؤى التى نراها فى المنام، فإذا استيقظنا وجدناها وهما وخيالا، فربما تكون حياتنا فى اليقظة هى حالة حلم بالنسبة لحالة ثالثة لم نجربها بعد، فإذا بلغناها

---

(١) الإمام الغزالى وعلاقة اليقين بالعقل، ص ١١١.

كانت هى الحقيقة، وكانت حياة اليقظة الحالية وهما وخيالا . ولكن الغزالى يحدد موقف الحالة المفترضة، بأنها حالة البعث[١]، التى عبر عنها القرآن بقوله تعالى : (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)[٢].

أما حدود الشك عند الغزالى وديكارت، فليست مطلقة، فكل منهما وقف فى شكه عند حد معين، وجمع بين الشك واليقين معا وإن خيل للبعض - مثل الاستاذ يوسف كرم وغيره - خطأ أنهما سارا فى شكهما إلى نهاية المطاف، واسقطا من وعيهما كل اعتقاد. فالغزالى عندما قارن أقوال الفرق بعضها ببعض، أصابه التشكك إلا من طائفة واحدة هى الصوفية، ولذلك فإن الحقائق الصوفية لازمته، ولم يحاول التشكك فيها، وصب شكه على معطيات الحس، ومبادئ العقل، لأن كل منهما يكذب الآخر[٣].

وكذلك ديكارت، فإن نطاق شكه لم يشمل كل شىء فى الوجود ولذا فهو يشك فى المعارف التى وصلت إليه، واستثنى منها، مجال الأخلاق، ومجال التقاليد الاجتماعية، ومجال العقائد الدينية[٤].

فقد وجه إليه أحد علماء اللاهوت سؤالا قال فيه، هل الشك فى وجود الله مباح؟[٥] فأجاب ديكارت : بأنه يجب التمييز بين نوعين من

---

(١) المنقذ، ص ٦ - ٧ . التأملات، ص ٦٦ .

(٢) سورة ق آية : ٢٢ .

(٣) المنقذ من الضلال، ص ٣٠ - ٣١ .

(٤) ديكارت، د/عثمان أمين، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٥) السابق، ص ١٢٣ - ١٢٤ . وقارن : نظرية المعرفة، ص ١٢٢.

الشك، شك يتعلق بالعقل، وشك يتعلق بالإرادة، فلا مانع من أن يشك العقل فى الله لعجزة عن إثباته، وفى نفس الوقت يكون المرء مؤمنا بقلبه إيمانا راسخا بالإرادة بوجود الله تعالى . ذلك أن الاعتقاد شأن من شئون الإرادة لا يناله الشك العقلى، فأنا إذا كنت مؤمنا بالله، فعلى الرغم من قوة إيمانى استطيع بالعقل الذى وهبنى الله أن أثير مسألة وجود الله، كما استطيع أن أشك فيها، دون أن يحصل عندى شك فى عقيدتى، وإنما يأثم إثما كبيرا، من يضع نصب عينيه أن يشك فى وجود الله ليظل مقيما على شك، ولكن لا حرج على من يستعمل الشك وسيلة نافعة لمعرفة الحقيقة، معرفة أدق وأكبر يقينا .

ويذكرنا هذا الموقف من ديكارت، بموقف خليل الله إبراهيم - عليه السلام - حين قال الله تعالى على لسانه: (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى، قال أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبى)[1].

فهو مؤمن كل الإيمان، ولكن عقله يحتاج إلى الدليل، ليزداد اطمئنانا، ذلك لأن الاعتقاد شأن من شئون الإرادة لا يناله الشك العقلى . فلم يكن طلب إبراهيم - عليه السلام - نابعا عن شك أبدا لأنه نبى يرعاه الله تعالى، ولكنها مسألة اليقين كما قال سبحانه (وليكون من الموقنين).

" وقد اتفق رأى كل من الغزالى وديكارت على أن فى الإمكان من حيث المبدأ الوصول إلى التحرر من كل الأحكام السابقة، ومن الخيالات،

---

(١) البقرة آية : ٢٦٠.

والوصول إلى معرفة يقينية منبثقة من العقل وحده وذلك كله عن طريق فلسفى خالص، وبطريقة منهجية، وكوسيلة لهذه المعرفة توصل كل منهما إلى منهج فلسفى يتفقان فى أسسه، وإن كانا يختلفان إلى حد ما فى طريقة عرضه، هذه الوسيلة هى الشك المنهجىّ، والتحليل الفلسفى .

وقد رأينا أن الشك الفلسفى عندهما قد أعلن عن نفسه فى وقت مبكر من فترة الشباب، وأن ميلهما هذا قد أزداد نتيجة للحالة العقلية السيئة لعصريهما، بما تشتمل عليه من آراء وتعاليم متناقضة قوت لديهما الشك فى حقيقة المناهج الموروثة. ولهذا اتجها إلى مهمة البحث عن طريق المعرفة الحقة، وبدءا عملية التفرقة بين الحق والباطل، والصواب والخطأ فى هذه الاتجاهات والمذاهب القائمة.

وبهذا توفر لديهما الشرط الفاصل للتفلسف، وهو أن يعترف المرء بأن هناك حقيقة واحدة على الإطلاق، وأن يبدأ حقيقة فى البحث عنها، مع الاقتناع الثابت بأنه يستطيع أن يجدها[1].

وقد كان شك الغزالى من حيث طبيعته شكا وجوديا، فهو حالة من الأزمات النفسية الحادة التى مرت به، فاقتلعته من جذور بيئته والقت به إلى تجربة جديدة، انعزل فيها عن الناس، وسلك نهجا جديدا من العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتعالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفيه القلب، وذلك بعد أن اعتقل لسانه، وعجز عن التدريس، فدخل

---

(١) المنهج الفلسفى، ص ٦٥ .

الخلوة واشتغل بالرياضة والمجاهدة، أربعين يوما، فانقدح له عالم جديد، لذلك خرج من بغداد إلى دمشق ثم إلى القدس، وظل سنتين لا شغل لـــه إلا العزلة والتأمل[١].

وهذه الأزمة التى تعرض لها الإمام الغزالى، تذكرنا بالأزمة التـــى تعرض لها القديس {أوغسطين} - ٣٥٤/٤٣٠م -، إذ يوجد تشابه بينـــهما فى معاناة أزمة الشك الذى بلغ لدى كل منهما حـــد المـــرض النفســـى والأزمة الحادة، ثم فى أسلوب الخروج من الشك إلـــى اليقيـــن بالـــهدى الإلهى، فالغزالى قذف الله فى صدره بنوره فجأة فاهتدى، واغســـطين، سمع هاتفا من قبل الله يقول له أقرأ، فالتفت إلى جواره، فأبصر رســـائل القديس {بولس } ففتحها وقرأها، فملأ الهدى واليقين نفسه فاطمأنت[٢].

أما ديكارت فكان شكه عقليا، لم يصل إلى حد العزلـــة والمعانـــاة والتصوف، فلم يأت شكه نتيجة أزمة نفسيه، كما حـــدث للغزالـــى فـــى الإسلام، والقديس أوغسطين فى النصرانية، يؤيد هذا قول ديكارت نفسه: " لقد استعملت دواعى الشك لإعداد أذهان القراء، للنظر فـــى الأمـــور الذهنية، ولتميزها عن الأشياء البدنية"[٣].

---

(١) انظر صـــ ٢٦٣- ٢٦٥ من هذا البحث

(٢) تاريخ الفلسفة الغربية، برتر اندرسل، ترجمة د / زكى نجيـــب، الجـــزء الأول، ط : لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٧م. وقارن : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوســـيط، أ/يوسف كرم .

(٣) ديكارت، د / عثمان أمين، ص ١٢٥ .

وقد عرض الغزالى فى حله الذى توصل إليه، كيف ارتفع الشك المطلق مباشرة عن طريق اليقين المطلق، الذى أتت به معرفة الله المدركة إدراكا حدسيا، .. ومن ناحية أخرى فإن عرض الغزالى للحل المتمثل فى صورة النور الذى قذفه الله فى صدره قد أعطى دافعا لسوء فهم هذا الحل فى صورة تفسيرات صوفية لا عقلية . أما ديكارت فقد ميز فى عملية رفع الشك، درجات متعددة بطريقة تحليلية : أنا أفكر، فأنا موجود، وأخيرا الله موجود، ولهذا فكل ما أدركه فى وضوح وتميز فهو حق[١].

فقضية : " أنا أفكر فأنا موجود " التى تمثل عند ديكارت درجة أولى للحل لا تظهر تلك الصورة فى عرض الغزالى للحل، فى حين أن المعرفة الفلسفية للذات – التى تشمل الكوجيتو، أى معرفة الذات ومعرفة اعتماد الذات اعتمادا مطلقا على الله – توجد فى مركز الحل سواء عند الغزالى أو ديكارت .

وقد ناقش الغزالى معرفة للكوجيتو، فى مؤلفات أخرى غير المنقذ، وبين أهميتها، إذ يقول الغزالى : " فإذا أغمض إنسان عينيه، ونسى جسمه، ونسى السماء والأرض، وكل ما يمكن أن تراه العين، فإنه يكون لديه بالضرورة معرفة بوجوده، ووعى بذاته حتى ولو لم يكن لديه أيضا وعى بجسمه، وبالسماء، وبالأرض وبكل ما فيهما، فإذا تأمل إنسان ذلك حتما فسيعرف أنه لو سلب منه جسمه أيضا فإنه سيبقى ولن يصير ابدا إلى عدم"[٢].

---

(١) المنهج الفلسفى، ص ١٢٦.

(٢) معارج القديس، ص ٢١ وما بعدها .

والمقارنة بين كلا الحلين عند الغزالى وديكارت، تبين أنه توجد فيهما نفس المعرفة الأساسية الفلسفية : التأسيس الواضح للحقيقة، فى وجود الله المطلق، كمصدر وحافظ للوجود الإنسانى المتناهى، وعلى هذا يعتمد تأسيس فلسفتهما(١).

فالغزالى وديكارت يلتقيان حول نقطة هى : أن الذى وهب الغزالى الثقة والإيمان، هو الله، بالنور الذى قذفه فى صدره والذى وهب ديكارت الثقة بالعقل، هو الله الكامل، لأنه لا يمكن أن يهب عقلا مضللا.

إن فكرة الله - تعالى - هى بالنسبة لكلا المفكرين أول الأفكار الفطرية كلها، وتفوق فى وضوحها ويقينها ما عداها من كل التصورات الأخرى . وتمثل المعرفة الفلسفية للذات شرطا لا غنى عنه لمعرفة الله، ... فإذا تحققت المعرفة الفلسفية لله وللذات يعرف المرء فى الوقت نفسه تلك الحقيقة التى تتمثل فى أن الإنسان كما يقول الغزالى : " لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده، وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله " . وكما يقول ديكارت : " إن المرء يعرف حينئذ أنه موجود ناقص، فى مقابل كمال الوجود الإلهى، وأن وجوده معتمد على وجود الله كل الاعتماد فى جميع لحظات حياته"(٢).

وقد تشابه الغزالى وديكارت أيضا فى فكرة " الشيطان الماكر" أو"

---

(١) المنهج الفلسفى، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) السابق، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

الروح الخبيث " التى يمكن أن تضلل عقولنا، وتعبث بها وتغير الحقائق عند ادراكنا لها . وإن كانت هذه الفكرة قد ظهرت عند الغزالى بطريقة تلميحية فقط فى عرضه للشك المطلق، كما يقول الدكتور " زقزوق "[١]. وظهرت عند ديكارت فى صراحة ووضوح، فى قوله : " فإنه ربما كان هناك شيطان ماكر مخادع، يعبث بعقلى، فيرينى الباطل حقا، والحق باطلا، ويجعلنى أخطئ، على الرغم مما قد يكون لدى من يقين نفسى "[٢].

بحيث يمكننا القول، بأن فكرة الشيطان الماكر المخادع، كانت معبرا، وصل من خلاله كل من الغزالى وديكارت إلى تحقيق هدفه، بصرف النظر عما إذا كان هدف الغزالى هو البحث عن اليقين والحقيقة، أو كان هدف ديكارت هو الخروج من شكه فى وجوده هو، بواسطة تفكيره، ثم الخروج من شكه فى وجود الله بواسطة وجود الأفكار اليقينية التى لا يمكن أن يكون موجدها فى عقولنا هو الشيطان الماكر، أو الروح الخبيث، ولقد نظر كلاهما إلى هذه الروح على أنها قوة الوهم، أو التخيل، والتى يمكن أن تتسلط على العقل فتضله، وتجعل تفكيرنا مشوها مشوشا .

فاليقين الذى ينشده { ديكارت } هو اليقين العقلى، الذى يكون صادقا بذاته، وواضحا جليا أمام العقل، لا لبس فيه ولا غموض ولذلك

---

(١) نفس المصدر، ص١٢٩. قارن المنقذ، ص ٢٨، تجد الغزالى ينكر الشيطان ودوره المضلل.

(٢) التأملات، ص ٨٠ .

فإن لديه وجود النفس يقين، ووجود الله يقين، ووجود العالم الخـــارجى يقين، والحقائق الرياضية يقين ما دام الخطأ لا يرتقى إليها، والشـــك لا يزعزعها.

أما اليقين الذى ينشده {الغزالى} هو العلم اليقينى الذى ينكشف فيـــه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الخطأ أو الوهم، ولا يتسع القلب لتقرير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكـــون مقارنـــا لليقين. والعلم اليقينى عند الغزالى، هو الحقيقة الصوفية دون غيرها مـــن أنواع الحقائق، ذلك اليقين الذى لا نصل إليه بنظم دليـــل، أو بـــترتيب كلام، بل بنور يقذفه الله فى الصدر، فذلك النـــور هـــو مفتـــاح أكـــثر المعارف[1] .

فالكشف الباطنى، الذى قال به الغزالى، هو مفتاح العلوم ومصدر الحقائق الدينية، فلولاه لما ترفع الغزالى عن طريقة التقليد ولا اســـتطاع، أن يخرج من الشك، ويعود إلى اليقين.

وفى الختام نقول إن الصورة التى عرض بها كل مـــن الغزالـــى وديكارت الشك المنهجى، ليست بالتأكيد من قبيل المصادقة، بـــل إنـــها لتسمح باستخلاص نتائج معينة، فقد عرض شكهما فى صورة اخبار عن تجربة شخصية، ... وقد أعطى الطـــابع الشـــخصى فيمـــا يرويانـــه لأفكارهما قوة اقناع، لا تستطيع أن توصل إليها المناقشـــات المجـــردة،

---

(١) الإمام الغزالى وعلاقة اليقين بالعقل، ص ٢١٨، ٢٢١ .

وفوق ذلك فهما يقصدان فى المقام الأول، حث القارئ على الاحتذاء بهما، وتشجيعه على سلوك سبيل الشك، حتى يمكنه التغلب عليه نهائيا[١].

وكل من قرأ كتابى " التأملات " و " مقال عن المنهج" لديكارت ورأى كيف انتقل هذا الفيلسوف من الشك إلى اليقين بالحدس العقلى ومعرفة الذات، وكيف جعل معيار اليقين مبنيا على بداهة المعانى لم يخف عليه ما بين إمام الفلسفة الحديثة والإمام الغزالى من تشابه فكلاهما يصرح بأنه لا يقبل شيئا على أنه حق إلا إذا انكشف له انكشافا بديهيا واضحا .

والله المستعان.

---

(١) المنهج الفلسفى، ص ٧٣.

الخاتمة

وبعد دراستنا لظاهرة الشك بين اثنين من عمالقة الفكر، هما الفيلسوف المسلم أبو حامد الغزالى، والفيلسوف المسيحى "ديكارت" نقول إن الشك المنهجى الذى سلكه كل واحد منهما، وسيلة من وسائل تطهير الذهن وتصفيته، وقد قالوا : إنه مبدأ الحكمة ومدرسة الحقيقة، فهو أول خطوة من خطوات العمل الفلسفى، ومن واجب المفكر أن يتحلى بروح نقدية شكية، تخالف هذا اليقين المطلق .

إلا إننا نقرر أن الدعوة إلى الشك فى كل شىء، لا يمكن تحقيقها فى الواقع، لأن من العسير أن يتنازل ويتنكر الإنسان لكل معارفة وآرائه وتقاليده، ليبدأ حياته من الصفر، إن الشك الهادف البناء هو ما يقتصر على ما تثيره الظروف، وما تدعو إليه الحاجة.

إن مهمة الشك الطبيعية، أن يكون جزءا من عملية التفكير لا شيئا مستقلا، وأن يقوم فيها بمهمة الباعث والناقد معا .

كما تبين لنا كذلك أن الشك المذهبى يتعارض مع فطرة الإنسان السليمة المؤسسة على اليقين . إذ أن هذا النوع من الشك يبدأ صاحبه شاكا، وينتهى شاكا، وهو غاية فى ذاته، وليس وسيلة لغاية اخرى يهدف إلى تحقيقها .

أما الشك المنهجى، فهو منهج يفرضه صاحبه بإرادته، ويلزم به نفسه، رغبة فى امتحان معلوماته، وتطهير عقله من كل ما يحويه من

مغالطات واضاليل، وهذا النوع من الشك بمثابة قنطرة يعبر عليها من درجة مجرد الإيمان والتصديق، إلى درجة اليقين المستغرق لشعاب النفس.

وفى خاتمة البحث نقرر عدة نتائج:

١- إن الغزالى بدأ بشك منهجى قويم، سبق إليه فلاسفة العصر الحديث، وعلى رأسهم إمام الفلسفة الحديثة، ديكارت، الذى تأثر كثيرا فى بناء منهجة بالغزالى، فقد بحث الغزالى عن منقذ لضلاله، فكانت محاولته جديدة فى تراث الفكر العربى ومهما تكن نتيجة بحثه، يبقى له الفضل الأول فى بناء منهجية جديدة، بدأت تبشر بنمط فكرى جديد ,

٢- لم يكن الغزالى فى شكه المنهجى، رافضا لتعاليم الإسلام ولا منكرا للإيمان، بل كان معتصما بالله تعالى.

٣- شك الغزالى فى قدرة الحواس عن الوصول إلى عالم الغيب كما آمن بأن التراث البشرى لا يستطيع أن يدل على هذا الطريق، ولذا رجع من الشك إلى اليقين " بنور إلهى " قذف فى صدره، ورضى بذلك، ولم يذكر للعقل فضل فى هذا النور . إذ بعد أن كان متشككا فى قدرة العقل، أصبح مؤمنا بعجزه، وقام مقامه لديه فى الوصول إلى اليقين، الكشف الباطنى، والنور الإلهى .

إذن تجربة الغزالى، لم تكن شكا فى ذات العقل، كذلك لم تكن للإيمان بالعقل، وإنما كانت اثباتا بعجز العقل عن الوصول إلى عالم الغيب .

٤- تأثر ديكارت بالغزالى فى منهجه الشكى، فكلاهما يصرح بأنه لا يقبل شيئا على أنه حق، إلا إذا انكشف له انكشافا بديهيا واضحا، والفرق بين الغزالى وبين ديكارت، فى الخروج من الشك إذ الغزالى جعل النور منبجسا من الجود الإلهى، فى حين أن ديكارت جعله قائما على " الكوجيتو "، - أى معرفة الذات -، وسواء أكان رجوع النفس إلى اليقين بمعونة خارجية، أم بنقد داخلى ذاتى، فإن أمرا واحدا لا ريب فيه وهو أن مفتاح المعرفة فى كلا الحالين هو " الحدس".

٥- إن الباعث على الشك لدى الغزالى وديكارت، هو حب الحقيقة وحده، وإرادة الوصول إلى العلم اليقينى، وليس مجرد شك لذاته، أى لأجل البلبلة الفكرية، واحداث الاضطراب العقلى، دون ما هدف او غاية .

٦- إن الثورة الشكية، التى شنها كل من الغزالى وديكارت على المعارف الحسية والعقلية، كانت تحسسا لأكد الطرق توصلا إلى اليقين .

٧- إن حدود الشك عند الغزالى وديكارت، ليست مطلقة، فكل منهما

وقف فى شكه عند حد معين، وجمع بين الشك واليقين معا، وإن خيل للبعض خطأ أنهما سارا فى شكهما إلى نهاية المطاف، واسقطا من وعيهما كل اعتقاد .

٨- رأينا أيضا، أن الشك المنهجى عند الغزالى وديكارت، قد أعلن عن نفسه فى وقت مبكر من فترة الشباب، وأن ميلهما هذا قد ازداد نتيجة للحالة العقلية السيئة لعصريهما، بما تشتمل عليه من آراء وتعاليم متناقضة، قوت لديهما الشك فى فى حقيقة المنهج الموروثة، ولهذا اتجها إلى مهمة البحث عن طريق المعرفة الحقه.

٩- إن فكرة "الله" هى بالنسبة لكل منهما، أول الأفكار الفطرية كلها، وتفوق فى وضوحها ويقينها ما عداها من كل التصورات الأخرى .

١٠- إن الصورة التى عرض بها كل من الغزالى وديكارت الشك المنهجى، ليست بالتأكيد من قبيل المصادفة، بل إنها لتسمح باستخلاص نتائج معينة، فقد عرض شكهما فى صورة إخبار عن تجربة شخصية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دكتور

محمد بن الحسن المهدى

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بجامعة الأزهر

قائمة المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم – جل من أنزله، مصر .

٢ – اسس الفلسفة – د/ توفيق الطويل – النهضة العربية ١٩٧٦م.

٣ – إحياء علوم الدين – للإمام أبو حامد الغزالى – القاهرة.

٤ – الإنسان عند الغزالى – د / على عيسى عثمان – الانجلو ١٩٦٢م.

٥ – الإمام الغزالى وعلاقة اليقين بالعقل – د/ محمد إبراهيم الفيومى – الانجلو ١٩٧٦ م.

٦ – أعلام الفلاسفة – د / هنرى توماس – دار النهضة العربية ١٩٦٤م.

٧ – التعريفات – للشريف الجرجانى – الحلبى ١٩٣٨م.

٨ – تلبيس إبليس – للإمام البغدادى – دار احياء الكتب العربية ١٩٨٦م.

٩ – تمهيد للفلسفة – د / محمود حمدى زقزوق – الانجلو ١٩٨٦م.

١٠ – تاريخ الفلسفة الأوربية – أ/ يوسف كرم – القاهرة .

١١ – تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام – د / محمد على أبو ريان – دار النضهة العربية ١٩٧٦م .

١٢ – تاريخ الفلسفة العربية – د / جميل صليبا – بيروت ١٩٧٣م.

١٣ – تأملات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة – د/ محمد عبد الرحمن بيصار – الانجلو ١٩٧٢م .

١٤ – تاريخ الفلسفة الحديثة – أ/ يوسف كرم – دار المعارف .

١٥ – التأملات فى الفلسفة الأولى – ديكارت – الانجلو ١٩٨٠م.

١٦ – تهافت الفلاسفة – الإمام الغزالى – ط : دار المعارف .

١٧ – تاريخ الفلسفة الغربية – برتراندرسل – لجنة التأليف والترجمة ١٩٧٦م.

١٨ – الحقيقة فى نظر الغزالى – د / سليمان دنيا – دار المعارف ١٩٧١م.

١٩ – دراسات فى الفلسفة الإغريقية – محمد المهدى – الصفا والمروة ١٩٩٧م.

٢٠ – دروس فى تاريخ الفلسفة – د/إبراهيم مدكور يوسف كرم – ط: مدكور بمصر ١٩٥٤م.

٢١ – ديكارت – د/ عثمان أمين – الانجلو ١٩٦٩م.

٢٢ – دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة – د/ يحى هويدى – دار الثقافة ١٩٨٧م.

٢٣ – رواد الفلسفة الحديثة – ريتشارد شاخب – الهيئة المصرية ١٩٩٣م.

٢٤ – الصحاح – إسماعيل بن حماد الجوهرى – بيروت ١٤٠٤هـ.

٢٥ – العقل والوجود – أ/يوسف كرم – ط : القاهرة .

٢٦ – فى الفلسفة دراسة ونصوص – د/ محمد كمال جعفر – مكتبة دار العلوم ١٩٧٦م.

٢٧ – الفلسفة العربية عبر التاريخ – د/ رمزى نجار – دار الآفاق ١٩٧٩م.

٢٨ – الفلسفة ومباحثها – د / محمد على أبو ريان – ط : دار الجامعات المصرية ١٩٧٢م.

٢٩ – الفلسفة والمجتمع الإسلامى – د/ إبراهيم اللبان – النهضة المصرية .

٣٠ – فلاسفة الإغريق – ريكس وورتر – النهضة المصرية ١٩٨٥م.

٣١ – الفلسفة اليونانية مقدمة – تايلور – النهضة المصرية ١٩٥٨م.

٣٢ – الفلسفة ومشكلة الشك – د / محمود حمدى زقزوق – طرابلس ١٩٧٦م.

٣٣ – الفلسفة نشأتها وتطورها – د/نازلى اسماعيل – القاهرة ١٩٨٣م.

٣٤ – قصة الفلسفة اليونانية – م/ زكى نجيب محمود وأحمد أمين – لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٨م.

٣٥ – لمحات من الفلسفة الحديثة والمعاصرة – د / محمد المهدى – ط : النور ٢٠٠١ م.

٣٦ – ميزان العمل – الإمام الغزالى – ط : القاهرة ١٩٦٤م – ط: الجندى ١٩٧٣ م.

٣٧ – معيار العلم – الإمام الغزالى – ط : القاهرة ١٩٦١م.

٣٨ – مقال عن المنهج – ديكارت – الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥م.

٣٩ – مقدمة فى الفلسفة العامة – د/ يحى هويدى – ط : النهضة العربية ١٩٧٠م.

٤٠ – مدخل إلى الفلسفة – د/ إمام عبد الفتاح – دار الثقافة ١٩٧٥م.

٤١ – المعجم الفلسفى – د / جميل صليبا – بيروت ١٩٧٣م.

٤٢ – معجم الفاظ القرآن الكريم – مجمع اللغة العربية، ط : القاهرة .

٤٣ – المعجم الفلسفى – د / مراد وهبة – دار الثقافة ١٩٧٩م.

٤٤ – مدخل جديد إلى الفلسفة – د/ عبد الرحمن بدوى – الكويت ١٩٧٨م.

٤٥ – مع الفيلسوف – د / محمد الفندى – دار النهضة العربية ١٩٨٠م.

٤٦ – المدخل إلى الفلسفة – أزقلدكوليه – لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٢م.

٤٧ – المواقف فى علم الكلام – عضد الدين الايجى – ط : المتنبى القاهرة .

٤٨ – مبادئ الفلسفة – ديكارت، ترجمة د/ عثمان أمين – دار الثقافة ١٩٧٥م.

٤٩ – المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت – د / محمود حمدى زقزوق – الانجلو ١٩٨٢م.

٥٠ – المنقذ من الضلال – الإمام الغزالى – ط : صبيح ١٩٧٢م.

٥١ – مشكاة الأنوار – الإمام الغزالى – القاهرة .

٥٢ – المنهاج القويم فى منطق العلم الحديث ومناهج البحث – د/محمد المهدى – النور ٢٠٠١ م.

٥٣ – مصادر المعرفة فى الفكر الدينى د/ عبد الرحمن الزنيدى – ط : مكتبة المؤيد ١٩٩٢م.

٥٤ – معارج القدس، للإمام الغزالى – القاهرة .

٥٥ – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام – د / على سامى النشار – دار المعارف ١٩٧٧م.

٥٦ – نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة – د/ راجح عبد الحميد الكردى – ط : الرياض ١٩٩٢م.

٥٧ – تفسير الكبير، للإمام الرازى، دار الغد، القاهرة .

والله الموفق